القسم الرابع

القيم التخيلية والحساسة

الفصل الأول

زمن بـــلا شعر

نستطيع أن نتتبع الحركة العقلية حتى ظهور الانسيكلوبيديا(١) ، ، وحتى « المقال عن الأخلاق » (٢) ، وحتى إعلان حقوق الانسان(٣) ، وحتى وقتنا هذا .

لكن من أين يأتى ريشاردسون (٤) ؟ من أين يأتى جان جاك روسو؟ من أين تأتى « العـاصفة والانفعـال »(٥) *Sturm und Drang* ؟ لابد من أنه كان هناك نبع خفى قد انبثق منه هذا السيـل العـاطفى . لقد ظهرت

---

(١) تأليف واسع استغله فلاسفة القرن الثامن عشر ، وكان يتولاه دالامبير وديدرو Diderot . [المترجمان]

(٢) Essai sur les mœurs مؤلف تاريخى وفلسفى لفولتير، ١٧٥٦ . الفكرة الأساسية فيه : أنه لا يوجد شعب مختار ولا جنس متفوق ، بل المجتمع البشرى بأجمعه يشارك فى تقدم الانسان . وأن الأنسانية كونت نفسها ، تحت ضغط الاحتياج والظروف التى خلقت القوانين والأخلاق والعلوم . (أنظر فولتير ، بقلم جوستاف لانسون ، هاشيت ١٩٢٧). [المترجمان]

(٣) المبادئ التى أعلنتها الثورة الفرنسية فى عام ١٧٨٩ : المساواة بين المواطنين ، سيادة الشعب ، واحترام الحريات ... [المترجمان]

(٤) ريشاردسون : خالق الروماتيكيه الانجليزية الحديثة ومن مؤلفاته كلاريس هارلو ، وباميلا . [المترجمان]

(٥) *Sturm und Drang* ، أو العاصفة والانفعال : أعطى هذا الاسم لمدرسة أدبية أثرت تأثيرا عميقا على الأدب الألمانى بين (١٧٧٠ - ١٧٩٠) . وهذه المدرسة تدين باسمها لمسرحية ألفها Klinger عام ١٧٧٦ بعنوان « عاصفة وانفعال » قواسها حركة عكسية ضد العقلية ، مطالبا بحقوق الشعور ضد حقوق العقل ، وبحقوق الابداع ضد الاصطلاح . ويظهر فى إنتاج هـذه المدرسة تأثير «ستيرن» ويونج وجولد سميث و«أسيان» والكتـاب المقدس . ولكن الحركة على وجه عام يسودها تأثير « جان جاك روسو » . وأهم من يمثل هذه المدرسة فاجنر ، لنتز ، كلينجر وفردريك مولر . [المترجمان]

حتى الآن بمظهر من لا يرى على المسرح العالمى إلا العقليين : والواقع أن هذا هو الوقت الذى تقدموا فيه إلى المنظر الأمامى ، حيث شغلوا — فى صخب وإلحاح — أهم الأدوار الكبرى . لكن ليس صحيحاً أنهم كانوا وحدهم متفردين ، وقد حان الوقت لنلتفت إلى الآخرين . إلا أنه ينبغى أن نعترف أولا أن البحث شاق هنا ، وأن المظاهر تخدعنا ، وأن أولى النتائج التى نصل إليها سلبية .

***

ونحن فى الواقع نرغب فى توجيه بحثنا إلى ناحية الشعر . فلابد من أن القيم التخيلية والحساسة التى نأمل العثور عليها ، تحتمى فيه .

إلا أن هذا العصر كان عصر النثر . وهل هناك نثر أغنى وأقوى ، وأحق بالاعجاب من نثر سويفت ؟ وأرق من نثر سانت أفريموند ؟ وأبلغ من نثر فونتنل ؟ وأحد من أسلوب بايل ؟ إن ذلك المنطيق ، ذلك الرجل الذى لم يحب إلا الاتهام والتمييز Criminations et discriminations كما يقول لبنتز ، — لم تخمد أبداً جذوته . إنه يغضب ، وتزداد فورته ، ولا تزال تشتعل صفحاته بالنار التى كانت تلهبه . فاذا لم تكفه ألفاظ اللسان الجارى ، خلق غيرها . يحصر تعبيره الأفكار ويربطها حتى يجعلها تفصح عن كل ماتتضمنه . ولا أحد يشبهه ، وإنك لتتعرف أسلوبه لأول نظرة ، حتى ولو لم يوقعه .

لقد أعطى الجميع ، — انجليزا كانوا أو فرنسيين — للنثر قوة مؤثرة جديدة ، بتحميله بالأفكار ، وبجعله مناضلا ، متهجما . ولقد صبوا فى بحوثهم ، وفى رسائلهم ، وفى أحاديثهم عن الأحياء والأموات(١) وفى رحلاتهم الخيالية ، كل الأخلاق ، وكل الدين ، وكل الفلسفة .

ولم يكونوا شعراء . كانت آذانهم قد سدت عن نضرة الكلمات ورقتها ، وكانت نفوسهم قد فقدت معنى الأسرار . ولقد أغرقوا عالم الواقع الملموس فى نور لا يخمد . وكانوا يبغون الانتظام والوضوح حتى فى مكاشفاتهم القلبية .

---

(١) مثل كتاب فينيلون « أحاديث الأموات » الذى كتبه فى عام ١٧١٢ لتربية دوق بورجونى . [المترجمان]

وإذا كان الشعر دعاء ، فانهم لم يعرفوا الدعاء ؛ وإذا كان محاولة للوصول إلى ما يجل عن الوصف ، فقد كانوا ينكرون ما يجل عن الوصف ؛ وإذا كان تردداً بين الموسيقا والمعنى ، فانهم لم يعرفوا التردد . فهم لا يريدون إلا البرهان والقضايا ، وإذا نظموا شعراً ، فانما يفعلون ذلك ليضمنوه فكرهم الهندسى(١).

هكذا مات الشعر ، أو على الأقل بدا ميتا . لقد نفذ إليه الذكاء ، بآليته وجفافه ، ففقد سبب وجوده . فى ذلك الوقت ، كان هناك جمع غفير ممن ينظمون الشعر : ولكن بعد موت لافونتين ، لم يعد فى فرنسا شعراء . ولما ظهرت المدرسة الكلاسيكية الانجليزية فى ازدهارها الرائع ، كان أكثر ماتفتقده الشعراء المجيدون .

وبعد ، فقد كان للعبقرية المبدعة عدو آخر . لقد بولغ فى الاعجاب بما قدمه الجيل السابق من الروائع الأدبية فى سخاء . ازداد أشياع كورنيل وراسين وموليير عما يجب ، وظن البعض أن أولئك الأعلام جديرون دائما بالمحاكاة والتقليد . واعتقدوا أنهم استعملوا صيغاً خاصة وأسراراً فنية ، وأنه يكفى أن يتوصلوا إلى هذه الصيغ وتلك الأسرار لكى ينتجوا مثلهم روائع خالدة .

إن جبابرة العقل الذين كانوا يفخرون بعدم احترامهم لشئ من الأشياء، وكراهيتهم للاعتقادات الباطلة ، قد أصبحوا فى ميدان الأدب قطيعاً طيّعاً ؛ يسجدون أمام الأوثان ، ولا يجترئون على لمس « قانون التفريق بين الأنواع » أو قانون « الوحدات الثلاث » . يرفضون الاعتقاد فى الملائكة والشياطين ، ولكنهم يؤمنون ببندار وأناكريون وتيوكريت(٢) . بل كانوا يعتقدون فى أرسطو : لا أرسطو الفيلسوف ، بل أرسطو مؤلف علم البلاغة ، فهو بصفته هذه نصف إله .

---

(١) لياجون دى سان ديديه : الرحلة إلى بارناس ١٧١٦ ، ص ٢٥٨ « لقد دوت فجأة ضجة هائلة، فان مائة شاعر صاحوا فى آن واحد راجين أبوللو أن يستمع إلى أشعارهم . فقال أحدهم : أيها الاله العظيم ، لقد نظمت قصيدة عن حركة الأرض ، وقال غيره : لقد نظمت قصيدة عن الجبر ...» — وفيما يتعلق بانجلترا انظر إلى مؤلف جورج أسكولى ، « بريطانيا العظمى فى نظر الرأى الفرنسى فى القرن السابع عشر ، ١٩٣٠ . الجزء الأول ص ١١٩ .

(٢) شعراء اليونان فى القرن الخامس قبل الميلاد . [المترجمان]

كانت اليونان فى نظر راسين حقيقة شعرية مؤثرة . ولو لم تكن فيدرا (١) ابنة الآلهة ، لما تألمت مثلا تألمت :

J'ai pour ayeul le Père et le Maître des Dieux.
Le Ciel, tout l'Univers est plein de mes Ayeux.
Où me cacher? Fuyons dans la Nuit infernale.
Mais que dis-je? Mon père y tient l'urne fatale.
Le Sort, dit-on, l'a mise en ses sévères mains.
Minos juge aux Enfers tous les pâles humains.
Ah! combien frémira son ombre épouvantée,
Lorsqu'il verra sa fille à ses yeux présentée,
Contrainte d'avouer mille forfaits divers
Et des crimes peut-être inconnus aux Enfers?
Que diras-tu, mon Père, à ce spectacle horrible?... (٢)

ولكن اليونان لم تعد اليونان ، فقد آذاها هذا النجاح ، ولم تفهم على حقيقتها : ففقدت بساطتها الطبيعية ، وشبابها وحياتها ، وأصبحت أشبه بالمدافن العامرة بالتماثيل ؛ ولم تعد روائعها الابداعية سوى مجموعة قوانين للنجاح المصطنع . لقد درسها الناس على ضوء الحاضر ، وبدلا من تفهم أوليس وأجاكس (٣) ، قالوا إن جمالها مرده إلى لبسهما الشعر المستعار و إلى حملهما السيف فى ذلك الوقت.

---

(١) فيدرا : فى الميثولوجيا اليونانية ابنة مينوس إله الجحيم وابن زيوس رب الأرباب ، وقرينة « تيزيه » اشتهرت بحبها لابنها هيبوليت سفاحا ، ولما صدها اتهمته لدى زوجها ثم انتحرت ندما . وألف راسين مسرحية عن هذه المأساة . [المترجان]

(٢) جدى هو سيد الآلهة ، رب الأرباب .
إن أجدادى يملئون الكون والسماء .
أين أختبئ ؟ هيا نهرب فى الليل الخبيث .
لكن ماذا أقول ؟ إن أبى يحتفظ فيه بالاناء المشئوم
يقال إن إله القدر قد وضعه فى يديه الصارمتين .
إن مينوس يحكم فى الجحيم على البشر المسكين .
آه ! ... كم سيرتعد دهشة حين تتقدم ابنته إليه ،
مجبرة على الاعتراف بمائة فاحشة ، وجرائم ربما لا يعرفها الجحيم !
يا أبتاه ! ... ترى ماذا تقول فى هذا المشهد الفظيع ؟

(٣) Ulysse : والد تيليماك وزوج بنليوب ، بطل حرب طرواده . ورجوع أوليس إلى وطنه هو موضوع الأوديسا لهوميروس . وأجاكس هو خصم أوليس ، نشب بينهما قتال قلاستيلاء على سلاح أشيل — قاتل هيكتور فى حرب طروادة وأحد أبطال الالياذة ، الذى قتل بارس برمية سهم — فانتصر عليه أوليس ، فاغتم وجن . [المترجمان]

عندما شرع العالم فى تمجيد هوميروس فى عام ١٧١٥ ، وأراد أنصار القدماء الانتقام من المحدثين ، ونشر بوب ترجمته للالياذة ، التى ترجمت مقدمتها إلى الفرنسية والألمانية ، ترى ماذا كان رأى المعاصرين فى القصيدة اليونانية ؟ قال بوب إن هوميروس يفوق الآخرين بفضل الابتداع ، علامة العبقرية ، لأنه يمد الفن بالثروة التى عليه أن ينظمها . لقد استطاع هوميروس بفضل مقدرته هذه ، أن يتخيل تلك الأساطير التى أسماها أرسطو روح شعر الملاحم ، والتى تنقسم ثلاثة أقسام ، الأولان هما القصص المجازية والمحتملة — التى تبيح للشاعر التعبير عن أسرار العلم والحكمة — ثم القصص العجيبة المحيرة التى تتضمن ما يفوق الطبيعة ، وآلية الآلهة : « يخيل إلى أن هوميروس هو أول من جعل من الآلهة نظاما آليا للشعر ، مما أضفى على الشعر هذه الرفعة والأهمية . . . » بيد أن هذا الابتداع ، وإن كان مفيداً فى الخطابة والوصف والتشبيه ، فى التصوير والشعر والأسلوب ، إلا أنه لا يخلو من بعض العيوب ! فأعاجيب هوميروس لم تعد معقولة ، واستعاراته ملؤها المغالاة ، وتكراره متعب ممل . . .

ولما قرأت مدام داسييه(١) هذا الكلام ، ثارت وقالت : « ماذا يعنى بوب هذا ؟ ذلك الانجليزى الذى يترجم هوميروس وهو لايفهمه ؟ إنه لا يرى فى الالياذة إلا كتلة مهوشة من جمال لا انتظام فيه ولا انسجام ، حقلا ليس فيه سوى بذور فجة ، لا نضج فيها ولا كمال ، وإنتاجا حافلا بالغث الذى لا فائدة فيه ، يجب حذفه لأنه يخنق ما يستحق الاحتفاظ به . إن أعداء هوميروس لم يوجهوا إليه أبدا إهانة أشد ولا ظلما أفدح . ماأبعد الالياذة عن أن تكون حقلا بائراً ، بل إنها فى الحق بستان فيه أحسن انتظام وأكمل انسجام رآه الانسان . إن « لينوتر » أعظم مهندسى البساتين فى الدنيا ، لم يحقق فى بساتينه انسجاما أكمل مما حققه هوميروس فى أشعاره . . . »

عند هذا الحد انتهى الانتقال ، واستقرت الأمور فى مكانها : أصبحت إتياك(٢) فرسايل .

---

(١) قرينة عالم مشهور قامت بترجمة الالياذة والأوديسا . [المترجمان]

(٢) إتياك : إحدى جزر الأيونيون ، موطن أوليس عندما اشترك فى حصار طروادة . [المترجمان]

***

لشد ما أساء الناس إلى الشعر ! لم يعودوا يدركون معناه ، ولم يعد نفثا إلهيا يذكى القلوب . لقد صغروا من شأنه حتى لم يعد إلا صورة من صور عدوه ، فن الخطابة . فبدلا من البحث فى أعماق النفس ، اتجه — بمجهود مخالف لطبيعته — نحو خارجها ، نحو الاثبات والتحليل . كان الخيال يعد بقدرة تافهة ، ولم تعد صوره إلا بهرجا كاذبا . وأصبح الشعر مملا ثقيلا ، ولم يعد إلا صعوبات مذللة : هنا كان فضله كله . وكما قال فالانكور فى رده على خطاب السيد دى فليرى فى الأكاديمية الفرنسية فى عام ١٧١٧ : إن عرائس الشعر لم يعدن يسكن جبل بارناس ، لم يعدن بعد آلهة ، لم يعدن سوى وسائل شتى يتوسل بها العقل للتوصل إلى أدمغة الناس .

إذا أردنا أن نعرف إلى أى حد من الضلال وصل الناس إذ ذاك ، فينبغى أن نطلع على ما كتبه فونتنل عن أشعار فرجيل ، وما كتبه « هودار دى لامت » عن القصيدة . إلا أن هذا الأخير كان أكثر تمشيا مع المنطق ، فقد واصل جرأته حتى وصل إلى نتائج مبادئه : الشعر مضايقة ، فلنكتب بالنثر . إن النثر قادر على التعبير عن كل مايقوله الشعر ، فهو أدق وأوضح وأسرع ؛ لا يدفع بالذهن إلى العذاب ، بالقوافى والأوزان ؛ فلنقدم للناس قصيداً غير منظوم . . . وهو لم يكن يسير فى طريق ابتداع الشعر المنثور ، ولم يدرك أن الالهام له الحق دائما فى اختيار الشكل كيفما يشاء : بل على النقيض كان ينكر الانسجام بكل فخار .

والحق أن البلاغة ، على طول تهديدها للشعر ، لم تحرز يوماً انتصاراً أقسى مما نالته يوم كتب هودار دى لامت قصيدة سماها « البلاغة الحرة » : العفاء على القافية والوزن !

« يا قافية ، أيتها القيود الغريبة الظالمة ، أتكون أفكارى دائما عبيداً لك ؟ حتام تتحكمين فيها مغتصبة حقوق العقل ؟ فور ما تأمرين بالتزام العدد والوزن ، يجب التضحية بالصحة والدقة والوضوح . وإذا أنا أصررت على الاحتفاظ بها بالرغم منك ، فبأى عذاب تنتقمين منى لمقاومتى لك ؟ عليك وحدك ،

أيتها البلاغة الحرة المستقلة ، عليك وحدك أن تخلصيني من عبودية مهينة للعقل كل الهوان . »

هودار دى لاموت ، الرجل الذى لخص « الالياذة » فى اثنتى عشرة أغنية ، ثم نظم قصيدة يتمثل فيها « هوميروس » يهنئه على عمله القيم ؛ الرجل الذى كتب أشعار راسين منثورة ، وسر بعمله هذا وافتخر . . . لقد أمل أصدقاؤه وأشاله أن العالم بأجمعه سيدرك يوما أنه لا حساب إلا لعرض الوقائع ، ويومئذ سوف يدع الناس الاشباح ولا يعبرون عن غير الحقيقة ، ولن يثقلوا كاهل اللسان مرضاة للأذن ، وسوف يصبح الشعراء فلاسفة : وهذا خير سبيل للافادة منهم(١) . « كلما سار العقل فى طريق الكمال ، فضل الناس التمييز على الخيال ، وبالتالى قل إعجابهم بالشعراء . يقال إن أوائل المؤلفين كانوا شعراء . حسنا ، إنى أصدق هذا ، فما كان فى مقدورهم أن يكونوا غير ذلك . أما الآخرون فسيكونون فلاسفة (٢). »

وإلى أن يحين ذلك اليوم البعيد ، ينبغى التحرز من طائفة عنيدة ، مخادعة ، لا فائدة لها . الشاعر — حسب قول جان لى كلير — رجل يخترع ، جزئيا أو كليا ، الموضوع الذى يتناوله ، ويرتب أفكاره طبقا لنظام خاص يجتذب القارىء ويسترعى انتباهه ، ويستعمل ألفاظا تختلف عن الألفاظ الشائعة . « عندما نطلع على قصيدة ، فلا بد من أن نقول إن هذا عمل كذاب ، يريد أن يصف لنا أوهاماً أو حقائق مشوهة حتى إننا لا نستطيع أن نفرق بين الصحيح ، والباطل . ينبغى أن نعى أن الألفاظ الفخمة التى يستعملها لا غرض منها إلا أن يحير بها عقلنا ، وأن الوزن الذى يستعمله لا غرض منه إلا أن يتملق آذاننا ، لكى يدفعنا إلى الاعجاب بعمله ، والاكبار من شأنه . قد تنفع هذه الأفكار كترياق فى مطالعات من هذا النوع ، إذ تفيد أولئك الذين أوتوا ذهنا قويماً ، ولكنها لا نفع لها إلا فى تهويش أصحاب الأذهان الضعيفة ، إذا بالغوا فى الاعجاب بها (٣). » ما منشأ هذا العداء من أحد أعلام العقليين ؟ إنه هذا الاعتقاد الراسخ : الشعر هو الباطل .

---

(١) فونتنل : عن الشعر ، مصنفات مختلفة ، الجزء الثامن ، ١٧٥١ .
(٢) الأب تروبليه ، مقال عن موضوعات شتى فى الأدب والأخلاق ١٧٣٥ .
(٣) جان لى كلير : ١٦٩٩ .

وبعد ، فقد كان هذا رأى معظم المعاصرين ، وإن لم يشعروا بذلك . كان عملهم يقتصر على تقليد أشعار بندار — أعظم شعراء الأغانى فى اليونان القديمة — و « قصيدة الاستيلاء على ناسور » . فقد قال جان باتست روسو الذى كان يعد أكبر شاعر غنائى فى هذا الوقت « كان اعتقادى دائما أن آمن طريق للوصول إلى ذروة الاجادة هو تقليد عظماء المؤلفين السالفين » لذلك تجد الاجادة عنده ، عبارة عن علامة استفهام أو تعجب أو فورة كاذبة . فهو يبتدئ كلامه بتعجب مدهش : ماذا أرى ؟ ماذا أسمع ؟ لماذا تنشق السماء ؟ لأن الأميرة فلانة تقترن ، أو الأمير فلان يولد ، أو الملك فلان يموت » . ثم يتبع ذلك ببعض الأبيات يدعمها مدد من الميثولوجيا ، ثم ينتقل إلى مقارنة ، أو وصف : وهكذا تتم القصيدة . ولا يكتمل لها النجاح ، إلا إذا اختفى المنطق ، وبناء القصيدة ، تحت ستار من الغموض الفنى . « وهذا الخروج على القواعد والفن والمنهج ، إنما يزداد روعة كلما ازداد خفاء ، وكلما وهنت فيها الروابط ، مثلما يحدث فى أحاديثنا إذا أوحت بها نشوة العقل ، التى تعوقها عن الخمود . بمعنى أن هذا الغموض هو الحكمة فى ثوب الجنون ، متحررة من تلك القيود الهندسية التى تجعلها ثقيلة ، وتسلبها الروح . . . »

***

ويمكننا على أسوأ الفروض ، أن نلتجئ إلى الظروف المخففة ، بل أن نذكر أيضاً فى كتاب الحساب الكبير ، حيث يسجل نجاحنا وفشلنا ، بعض القيم المستنقذة ، مقابل كل هذه الخسائر .

أى حلم عذب ، أن نحلم بوجود الشعر الخالص ؛ لا شعر هناك إلا نسبى ، نسبى لكل جيل يمضى . لكى يبقى الشعر ويعيش ، يكفى أن جيلا ، حتى ولو كان مولعا بالعقل المجرد ، لا يزال يجد بعض الفتنة فيما يسميه « المخادع الكذاب » ؛ يكفى أن يرفض — وقد ناقض نفسه — اتباع مثال رجل يعتزم تحويل الشعر إلى نثر ؛ وحسبه أن يكون لديه كتاب تؤثر فيهم الموسيقا والجرس ، يوهمونه — مهما كانوا عليه من ضعف — بوجود انسجام رفيع . لا يوجد شعر خالص ؛ ولكن هناك طلب أبدى للشعر . بدا بوب شاعراً موهوبا ، وإنه لشاعر موهوب مادام قد بدا كذلك ؛ وقد وفى الطلب الخجول لزمنه ، ويزيد .

ومن هنا ، ليس غريباً أن نقول إنه حتى فى هذا الزمن المجدب ، كان هنالك شعر ، فى نظر المعاصرين . كان كانتز فى رأى الألمان شاعراً ؛ وحتى فى رأى الفرنسيين ، مادام قد كان من بين النماذج التى قدمت لهم فيما بعد ، عندما أريد لهم أن يتذوقوا طبيعية الألمان وبساطتهم . وقدم الايطاليون سلسلة من الشعراء كانوا موضع إعجاب أوروبا بأسرها : والمعجزة ، أنه بالرغم من كل الأسباب التى كانت تدعوهم إلى كتابة شعر ردئ ، فقد نظموا أشعاراً بقيت أكثر من يوم ، أكثر من سنة ، أكثر من قرن ، أشعاراً تفتننا اليوم . فقد كانت تثقل كاهلهم التقاليد « المارينيه » (١)، التى كانت تنصحهم بالتغنى دون سأم ، بالنيران المثلجة ، والثلوج المتأججة ، والرقة القاسية ، والشدة المستحبة . وكانت أكثر من ذلك إثقالا لكاهلهم ، الذكريات القديمة ؛ وحينما كانوا لا يشعرون باضطرار إلى تقليد أناكريون ، كانوا يجعلون من تقليد بندار واجبا عليهم . وكان مما يسبب ارتباكهم ذلك العلم ، الطارئ الجديد ، الذى باشروه ، وأحبوه ، وأرادوا أن يخلو له مكانا فى أشعارهم . ظلت قصائدهم ثقيلة تنبئ عن كثير من الجهد ، بما تحمل من كلمات فخمة ، ولتحرقها إلى الوصول إلى ذلك « الاختلال » الجميل ، مجد الفن . ولكن حدث ذات يوم ، أن خطر ببال فرانسسكو ريدى — بالرغم من تقليده بندار فى التكلف والغموض — أن ينادى باكوس بين تلال توسكانيا ، وأن يذيقه خمور الكروم ، الواحدة تلو الأخرى ، وأن يصوره مترنحاً ، متأثثا ، وهو ينتشى شيئا فشيئا :

Chi la squall ida cergovia
Alle labbra sue congiugne,
Presto muore, o rado giugne
All'età vecchia e barbogia:
Beva il sidro d'Inghilterra
Chi vuol gir presto sotterra:
Chi vuol gir presto alla morte,
Le bevande usi del Norte . . .

إنه لتجديف من باكوس ، أن يلفظ أسماء هذه الخمور الدنسة ؛ ينبغى أن تتطهر شفتاه :

(١) نسبة إلى مارينى الشاعر الايطالى الذى أخذ عليه التكلف فى الأسلوب. [المترجمان]

Si purifichi, s'immerga,
Si sommerga
Dentro un pecchero indorato,
Colmo in giro di quel vino
Del vitigno
Si benigno
Che flammeggia in Sansovino... (١)

فى ذاك اليوم ، أنقذت صورة من صور الشعر ، ثقيلة لكن حية مرحة ، عذبة ، مبتكرة ، بالرغم من أنها تزعم تذكيرنا بالشعر الغنائى القديم . وصورة أخرى أسمعنا فانسترو دافليكاجا — وقد حزن على عبودية وطنه — صيحات جميلة ملأها أنات مؤثرة :

E t'armi, O Francia? e stringi il ferro ignudo
Contra a me, che a'tuoi colpi armi ho di vetro,
Nè a me la gloria de l'antico scetro,
Nè l'antica grandezza a me fa scudo? (٢)

وأكثر من ذلك ! البهرج ، الاستعارة المبالغ فيها إلى حد الجنون ، الصور المعقدة التى شوهتها المغالاة فى التكلف ؛ كل القرن السادس عشر Secentismo أراد الايطاليون أن يبعدوه عن أشعارهم . فثاروا . لا إطناب فى الشعر ، بل بساطة وطبيعية . إن العبء ثقيل على المنزل : ينبغى الاستغناء عن الخدم . ماذا أقول ؟ لا لزوم لبيت على الاطلاق ، ولا لزوم لسقوف ولا جدران : ويعقدون اجتماعاتهم فى رياض ، تظلها السماء ؛ يريدون ابتعاث أركاديا القديمة ، أرض النعيم ، حين كان الناس يستروحون الشعر فى نسمات الرياح ، وحين

---

(١) *Bacco in Toscana*, 1685 : باكوس فى توسكانيا .
ذلك الذى يقرب من شفتيه — الجعة الشاحبة الحزينة — يموت سريعا — أو قلما يصل — إلى الشيخوخة المخرفة — وليرشف شراب التفاح الانجليزى — من يريد أن يوارى التراب سريعا — ومن يرد أن يلاقى الموت — فعليه بخمر الشمال . . .
. . . يجب أن تتطهره شفتاه ، أن تغطسا — أن تغرقا — فى كاس من ذهب — تفيض بتلك الخمر — بذلك الكرم — العذب أى عذوبة — الذى يتلألأ فى سانسو فينو !

(٢) *L'Italia alla Francia*, 1700 إيطاليا على الطريقة الفرنسية .
إيه يا فرنسا أتتشهرين السلاح ؟ وتجردين السيف — ضدى ، أنا التى لا أستطيع أن أواجه ضرباتك إلا بسلاح من زجاج ؟ — ضدى أنا التى ، لا مجد صولجانى القديم — ولا عظمتى الحالية ، يستطيعان حمايتى ؟

كان الرعاة يبعثون الألحان السماوية من مزاميرهم الريفية . وأسفاه ! إن تنفيذ مشروع فى مثل هذا الجمال ينقلب إلى تهريج وسخرة . إن أول ما اتجه إليه اهتمام أولئك « الأركاديين » ، أن يضعوا لأنفسهم قوانين ؛ وأن يتنكروا بأسماء رعاة تقليداً للاغريق ؛ ويسعون فى جماعات عديدة تنتشر فى إيطاليا كلها ، أكثر حذلقة وادعاء من أركاديا الرومانية ؛ إذ يلقون فى رياضهم أشعاراً لا تقل رداءة عن تلك التى أرادوا أن يتخلصوا منها : هى هى بذاتها ، احتفظوا بها ولم يغيروا شيئا منها . فانتهى المشروع إلى إفلاس . ومن دأبنا ألا نهتم إلا بالافلاس : ولو شئنا لاستطعنا أن ننظر إلى جمال المشروع ونبله .

ولا زال فى مقدورنا أن نجد فى الحقول الانجليزية بعض السنابل ، المتخلفة عن الحصاد . صحيح أنه ليس لدى برايور لوحات عظيمة حية الألوان : ومع ذلك فانه يجيد إضفاء لون بهيج على مواطن الجمال فى رسومه الدقيقة . إنه يجهل « السيمفونية » الهائلة : لكن لحنه رقيق ؛ وإذا كان الفن الذى لقنه إياه الاغريق واللاتين ، نتيجة لطبيعة جديدة ، فان تلك لا تمحو طبيعته الأولى ؛ فاذا كان « أناكريون » ، و « هوراس » أستاذه المفضل ، قد هذبا من موهبته ، فانهما مع ذلك لم يخلقاها . وهو وإن لم تكن عواطفه قوية ، فانه يتغنى فى جمال بسعادة أوقات الفراغ ، وبعذابنا فى الحياة ، وخوفنا من الممات ، وسروق الزمان ، وبكاء كلويه على ذبول زهوره ؛ وهو يخلو من الغضب والاحتقار والحزن الشديد : ولكن من حين إلى حين تتطرق نغمة حزينة إلى أغانيه ، فينفذ حينذاك بصورة أعمق إلى شغاف القلوب . يجوب ماتيو أنحاء انجلترا القديمة مع صديقه حان ؛ فيتقدم إلى خان كان يعرفه من قديم :

Come here, my sweet landlady, pray how d'ye do ?
Where is Cicely so cleanly, and Prudence, and Sue ?
And where is the widow that dwelt here below ?
And the hostler that sung, about eight years ago ?
And where is your sister, so mild and so dear
Whose voice to her maid like a trumpet was clear ? (١)

---

(١) تعالى إلى ، يا صاحبة الفندق ، بربك كيف حالك ؟ — أين سيسيليا النظيفة ، وبرودنس وسوزى؟ — وأين الأرملة التى كانت تقيم هنا فى الطبقة الأرضية؟ — والسائس الذى غنانا من نحو ثمانية أعوام؟ — وأين أختك العذبة الغالية؟ — التى كان نداؤها لوصيفتها واضحا كالنفير؟ (ماتيو برايور، من قصيدة *Down Hall* عام ١٧٢٣).

إنها لوحة انجليزية : الخان الريفى ، وصاحبه الجالس إلى المائدة ، وصاحبته :

By my throth! she replies, you grow younger, I think.
And pray, Sir, what wine does the gentleman drink ?
Why now let me die, Sir, or live upon trust,
If I know to which question to answer you first. (١)

كل ذلك طبيعى ومألوف ؛ ثم ننتقل — دون أن تتغير النغمة — إلى التأثر الذى يتملكنا عندما نفكر فى ذكريات الماضى :

Why, things, since I saw you, most strangely have varied,
And the hostler is hanged, and the widow is married.
And Prue left a child to the parish to nurse;
And Cicely went off with a gentleman's purse;
And as to my sister, so mild and dear,
She has lain in the churchyard full many a year. (٢)

ولا يصعب علينا ، أن نبين بعض الشعر عند الآخرين ؛ سواء تراءى شعراً لآذان من يسمعه لأول وهلة ، أو غلفته السنون حتى احتفظ بمسحة من جمال قديم مؤثر إلى وقتنا هذا . ومع ذلك ، فنحن لا نستغنى عن أن نستعين بالظروف المخففة ؛ وأن نتخلى عن المطلق لنقنع بالنسبى ؛ وأن نقرر ، مع كردوسى Carducci ، أنه لم يوجد زمن أقل شاعرية من الخمسين سنة الأولى من القرن الثامن عشر ، وبذا كانت هنا بداية عهد من الاجداب ؛ وأن نعترف ، أخيراً ، بأن أحسن الشعراء الذين سردنا أسماءهم ، ليسوا إلا شخصيات هزيلة بجانب دانتى وشاكسبير .

***

فلنعترف بأن هذا الانقلاب نفسه قد وقع فى معظم ميادين الأدب ، فقد

---

(١) فتجيب ، قسما سيدى ، أرى أنك تصغر سنا — وبربك يا سيدى أى نبيذ يشربه السادة ؟ — فلأمت يا سيدى أو أعش على الصدق — إن كنت أعرف أى سؤال أجيبك عنه أولا .

(٢) آه ، لكم تغيرت الأمور منذ رأيتك أخيرا — فقد شنق السائس وتزوجت الأرملة — وتركت ترو طفلا للأبرشية لتربيه — وهربت سيسليا بحافظة نقود أحد الوجهاء — أما عن أختى العذبة الغالية — فانها ترقد فى رحاب الكنيسة منذ أمد طويل .

فقد الناس معنى القيم المبتدعة ، ظانين أن التأليف هو التقليد ، هو الطاعة

وقف النقاد على مفترق الطرق لمنع المؤلفين من الضلال ، وإعادتهم إلى الطريق الأمين . وكما قال توماس ريمر — الذى كان له الفخر فى تبيان أن شكسبير لم يفهم شيئا فى المأساة — فان الشعراء قد يصبحون فى غاية الاهمال إذا لم يشعروا بأن النقاد يقفون لهم بالمرصاد .

وما أكثر النقاد ! الأموات الذين لم يتخلوا عن أماكنهم ، أرسطو ، هوراس ، لونجين ، الذى لم ير احتفالا مثل هذا قط . والأحياء : الأب بوهور ، الأب رابين ، والأب لى بوسيه ، العلماء الأعلام الذين يعرفون كيف يكون التفكير السليم فى مؤلفات الفكر ، وكيف تنظم الخطب والأشعار ، وكيف ترتب اللاحم الشعرية . وفريق من الانجليز أصحاب السلطة ، جيرار لانجبين وإدوارد بيش وليونارد ويلستد ، وجون دنس وغيرهم . وفى إيطاليا سوراتورى وكريسيمبينى وجرافينا يدرسون جوهر الشعر والمسرحية الكاملة . وفى ألمانيا يشرح كريستيان فرنيك أن الأدب الفرنسى إنما ارتفع إلى ذروة الكمال ، لأن كل مؤلف فى باريس ، لا يظهر إلا ويتبعه النقد على الفور ، حتى ولو كان لمؤلف مشهور . . . يا للحمية ! يا للسلطة الصارمة ! يا للتذمر ويا للنزاع ! فلنرث للمؤلفين على ما يتعرضون له من امتحان وتأنيب — لقد سايروا الزمن ، وكان لهم فى ذلك متعتان : متعة الصياح فى الرد للمتكبرين ، ومتعة الطاعة للكسالى الخاملين .

وهرم بوالو . لقد لخص مبادئه الأدبية فى مقدمة طبعة مصنفاته عام ١٧٠١ ، ثم ودع الجمهور : « بما أن طبعة مؤلفاتى هذه قد تكون الأخيرة التى أشاهدها ، وليس من المحتمل أن تمتد حياتى أكثر من ذلك ، إذ بلغت الثالثة والستين من عمرى وأرهقتنى الأمراض ، فرجائى أن يتقبل الجمهور وداعى ، وأقدم له عظيم امتنانى على ما أبداه من كرم فى الاقبال على مؤلفاتى التى لا تستحق فى الحق كل هذا الاعجاب الكريم . . . » بيد أن الجمهور لم يكف عن الاعجاب ، والدليل أن بوالو فى نفس وداعه هذا يشكر الكونت دى إريسيرا على ترجمته الشعرية البرتغالية لمؤلفه « فن الشعر » والتى تفضل بارسالها إليه من لشبونة مصحوبة برسالة وأشعار بالفرنسية من تأليفه . ترى ، أى بلد لم يقرأ فيه « فن الشعر » ، ويفسر ، ويترجم ؟ أى بلد لم يتخذ فيه

مكانة القانون ؟ إن بوالو ، ذلك الفرنسى المزهو الذى لم ير ولم يقدر شيئا خارج حدود بلاده ، لا يزال بالرغم من ذلك يمثل دور مشترع بارناس(١) ، السلطة الباقية ، بينما هى قد ضعفت فى كل مكان .

إنه لم يعد شخصا فحسب بل أصبح مؤسسة : لقد أقبل الناس على زيارته فى أوتى ، كأنما يزورون اللوفر . تخيل امرأة أديبة — مسز مونتاجو ، ترحل لتلحق بزوجها سفير انجلترا فى القسطنطينية ، فتقرأ أشعاراً تركية . ترى فيمن تفكر فى ذلك الحين ؟ فى بوالو . — إنها تقول : « أرى فى هذه الأشعار كثيراً من الجمال ؛ فمثلا هذا التشبيه « سلطانة لها عيون الغزال » ، يعجبنى غاية الاعجاب وإن لم يبد ظريفا بالانجليزية ؛ يخيل إلى أنه يعرض صورة حية للنار التى تضطرم فى عيون حسناء فاترة . لقد لاحظ بوالو بدقته ، أننا لانستطيع أن نحكم على جمال هذا التعبير أو ذاك عند القدماء ، بناء على الفكرة التى يمثلها ، لأن هذه الكلمة أو تلك ، وقد كانت عندهم لطيفة ، ربما تبدو عندنا مبتذلة أو جارحة للأذن . . . (٢) »

لم يفكر بوالو أبدا فى أنه يمكن لمؤلف أن يستغنى عن العبقرية : لكن أخلافه خالفوه ، مفضلين الأصول الفنية على العبقرية . قالوا إنه يكفى توافر شرط واحد لنظم الشعر الجيد : وهو احترام القواعد . لقد أيد بوالو قاعدة التفريق بين الأنواع : فكم من تمييز تافه ، كم من تفريق وتقسيم ستؤدى إليه قاعدته هذه ! كانت الكلاسيكية روحا وإرادة ، بينما الكلاسيكية الكاذبة أصبحت صيغة : كل الفرق هنا .

الأخلاق : هو ذا ما سيدافع عنه الورثة المساكين ، كأنما ينشدون السلوة . فالملحمة الشعرية يجب أن تكون أخلاقية ، هدفها الاصلاح الخلقى . والشعر ينبغى أن يكون أخلاقيا ، يعلم الحقائق الدينية ، إنه علم أخلاق ، وجزء من علم اللاهوت . « الشاعر الحق هو الذى يجمع بين الفائدة والتسلية حتى إنه يعلم حينما يسلى ، ويسلى حينما يعلم » . — « الشعر ساحر ، لكنه ساحر مسالم ، وهو هذيان يطرد الجنون » . والمسرح على الأخص ينبغى أن

---

(١) بارناس : جبل مخصص لاله الشعر (أبوللو) فى الأساطير اليونانية . [المترجمان]
(٢) إلى بوب من أدرنة ، إبريل ١٧١٧ .

يكون مدرسة ؛ تباً للمؤلف الهزلى إذا هزأ بالفضيلة ، وأضمر الرذيلة ! لقد وجدت الملهاة فى انجلترا شكلا مبتكراً ؛ كانت تقتبس الحبكة من النماذج الفرنسية وعلى الأخص من موليير ؛ ولكنها أضفت عليها نكهة خاصة ، بأن مزجت بينها وتبلتها ببعض التعابير المبتذلة والمواقف الخليعة ؛ فكانت متهتكة فاضحة ، مرحة ، لطيفة : تلك هى المسرحية التى جعلها كونجريف وفانبرو تنتصر على مسارح لندن . إلا أن أكليركيا هو جيريمى كوليير هاجمها هجوما عنيفا ، ونشر فى عام ١٦٩٨ مقالا عن « تهتك المسرح الانجليزى » . شيئا من الأخلاق . إن ما يعوزنا هو الأخلاق ! على المسرح أن يبين لنا بطلان التعاظم البشرى ، وتقلبات الحظ المباغتة ، والعواقب الوخيمة للقسوة والظلم ، وجنون الكبر ، وإجرام النفاق . لكن ماذا يفعل المسرح الانجليزى بدلا من ذلك ! لقد استحالت الفضيلة إلى سخرية ، وساد التجديف والكفر والفحشاء ، ولم يتورع الناس عن الهزء برجال الدين ! يا للعار ! يا للفضيحة! — والشئ الأغرب ، أنه بعد مناقشات عنيفة أثارها جيريمى كوليير ، أفلح الروح البوريتانى فى إصلاح الملهاة ، التى لما رأت أنها لم تعد تستطيع العيش فى الشكل الذى ترضاه ، آثرت أن تموت .

وفى نفس الحين تقريباً ، حاول الايطاليون خلق ملهاة تحترم العقل والأخلاق فى وقت واحد . ففى نابولى — بصرف النظر عن روما وفلورنسة — وجد مؤلف هو نيكولو أمنتا ، تخلى عن الهرج والهوس : لا شخصيات خليعة ، لا ألفاظ مبتذلة ، لا فورات عاطفية ، ولا خادمات فاجرات ، ولامكائد جنونية : بل الانتظام ، بل الأخلاق .

إن تأسيس مجمع رسمى يختص بالفحص فى المسائل اللغوية ، والسهر على سلامة الذوق فى الأدب ، رغبة لم تراود ذهن دولة من الدول سوى فرنسا ، حينما كانت متحمسة للنظام والطاعة . أما الآن فان الشعوب المجاورة تحسد هذه الأكاديمية الفرنسية ، التى اتخذت مهمتها رويدا رويدا صفة مقدسة ، واكتسبت نفوذاً لم يعرفه مجلس آخر ، والتى تعد كل أفعالها — كجائزة أو احتفال أو خطبة — أحداثا مهمة جليلة . وابتغى الانجليز ، أكثر شعوب الدنيا حرية ، أن يكون لهم أكاديمية مماثلة ، يكون من أعضائها بريور الذى يعد فى بريطانيا بمثابة لافونتين ، وبوب الذى يعد بمثابة

بوالو ، و كونجريف الذى يعد بمثابة موليير(١) ، وسويفت الذى أعلن أنه سيطيع الأكاديمية مختارا ، وإن كان لا يحتمل أى نير (٢) . وبعد مجادلات عنيفة أخفق المشروع . لكن على الأقل ، تأسست أكاديمية برلين فى عام ١٧٠٠ ، والأكاديمية الملكية الاسبانية فى عام ١٧١٣ ، وحتى الروسيا البعيدة حصلت على أكاديميتها فى عام ١٧٢٥ .

إن النقد ، الذى كان لا يقيم وزنا لجميع نظم الماضى فيما يخص الدين أو السياسة ، أصبح هنا ، على النقيض ، محافظا . كان يتهم القدماء بأنهم يعوقون تقدم أنوار المعرفة : أما هنا ، فكان يستشهد بهم كآلهة حافظة . كان يجعل من الرأى الشخصى قاعدة لكل شئ : أما هنا فلا يرى السلام إلا فى مراعاة القواعد ، إذ يحول وقائع التجربة إلى إلزامية . إذا شئت أن تؤلف تراجيديا ، فخذ أربعا وعشرين ساعة ، وبهواً فى قصر ، وبعض الواجب ، وشيئا من العشق ، وبعض أبطال مشاهير .

***

فى عام ١٧١١ ، غمرت السعادة الانجليز لرؤيتهم مؤلفا صنواً « لفن الشعر » يولد فى أرضهم ، دبجه أحد مشرعى « بارناس » . رجل عليل ، قمئ ، عصبى ، مرهف الحس لكل نفثة ولكل فيض عاطفى ، ولكنه بالرغم من كل هذه الفوارق ، وغيرها ، خلف مجيد لبوالو . وقد كان ينتظر الكسندر بوب سؤود طويل ، مادام عمره لم يكن يتعدى الثانية والعشرين ، عندما نشر مؤلفه مقال عن النقد : *Essay on Criticism* .

يخيل إلينا أننا نجد فى هذا المؤلف الذى سرعان ما أصبح واحدا من أشهر مؤلفات العصر ، معركة نهائية . كان فى مؤلف « مقال عن النقد » رجلان ، لا يتفقان فى كل آن : بل طالما يتعارضان . أحدهما يمثل حمية طبع فردى حى ، والآخر يمثل الطاعة والنظام اللذين سينتصران . أولى هاتين الشخصيتين تطلق لحميته الفتية العنان ، وتفصح عن الشعور الذى يعتمل — سرا أو جهراً —

---

(١) فولتير : رسائل فلسفية ، الرسالة ٢٤ . عن الأكاديمية .

(٢) سويفت : اقتراح لتصحيح وتحسين وتوطيد اللغة الانجليزية ، لندن ١٧١٢

فى قلوب معظم الكتاب : السأم ، فراغ الصبر ، والعصيان ضد النقاد . فنحن نعلم أن الكتاب يرحبون بالمدح ، ولكنهم لا يتحملون أحكام الادانة . يحمل بوب على النقاد فيقول : أولئك الناس الذين يعيبون مافى مؤلفاتى من نقص وقصور ، الذين يفرضون علىّ حكمهم ورقابتهم ، أى حق لهم ؟ لقد أعلنوا ذات يوم أنهم سيكونون نقاداً ، إنها المهنة التى اختاروها : فهل يكفى هذا الاختيار ليكون أساساً لتفوقهم ؟ واعجباه ! أيليق أن أى أحمق يضفى على نفسه مظاهر الأهمية ، ويزعم نفسه وصيا علىّ ؟ هل يجوز أن أى شاعر فاشل مغمور يحكم على قيمة أشعارى ؟ أو أن مؤلفا مسرحيا فاشلا يتقدم ليعلمنى كيف ينبغى أن أكتب الملهاة ؟ فليسمعوا منى بعض الحقائق بدورهم ، وليحدث مرة أن ينتقد النقاد كاتب . كل شاعر ردئ يقابله عشرة حكام أردياء ؛والعجرفة ليست شهادة بالقيمة ، وقبل أن نحكم ينبغى على الأقل أن نفهم : إن ذهنا محدوداً عاجزاً عن استيعاب وجهة نظر الكاتب، لابد من أن يخطئ فى التفسير . ما أكثر المزايا التى يحق لنا أن نتطلبها فى السادة النقاد — أقران أرستارك (١) — هل اكتسبوا رأيهم السديد الأكيد بالتجربة وبالعمل ؟ هل أوتوا مرونة الذهن ، والحدس ؟ هل بلغوا من التواضع ، بحيث لا يعرفون الغيرة والحسد ؟ هل يقدرون على غض النظر عن العيوب الهينة ، وعلى التنويه بالمواهب ؟ وعلى أن يجودوا بالمدح بخلوص نية ورضا بدلا من التقتير فيه كالبخلاء ؟ هل يحدوهم دائما الانصاف ؟ وأسفاه ! إنهم عبيد القوة ، والشهرة ، والأحزاب السياسية ، والأهواء الدينية . . .

إن هذه الغضبة ، التى تنبئ عن نفس جياشة حية ، وعن طبع لا يرى أنواء أنكد من أنواء المحبرة الهوج ، لممتعة جداً . إلا أن الأعجب أن نرى كيف يتصدى بوب الآخر للأول — الذى سرعان مايقتنع فى غير عناء — لأنه فى الحق لم يحمل على النقاد إلا لأنه يتمنى لهم رفعة المقام . إن بوب الحكيم المنطيق يعلن مبادئه ونظرياته ، فيقول إننا يجب أن نتبع الطبيعة ، الطبيعة المعصومة ، الضوء الصافى ، الشعاع النورانى : بيد أنه يجب أن نتبع هذه

---

(١) أرستارك : عالم نحوى اسكندرى وناقد مشهور ، مربى أولاد بطليموس ، فى القرن الثانى قبل الميلاد ـ مضرب المثل فى شدة النقد مع الصحة والوضوح . [المترجمان]

الطبيعة الثابتة الشاملة ، بهدى العقل : يجدر بنا فى الواقع أن نسوس «بيجاز» (١) لا أن نهزه ، أن نكبح فورته لا أن نستحث سرعته ، ينبغى أن نخفف سرعة الفرس المجنح الأصيل . إن الفن هو الطبيعة ، لكنه الطبيعة المستكملة ، الطبيعة النظامية ، الخاضعة للعرف . فليتبع الشعراء إذن القواعد التى اقتبسها الأقدمون من الطبيعة ، وليدرسوا المبادئ النافعة التى تلقننا بها اليونان الحكيمة كيف نكبح — فى الوقت المناسب — جماح الخيال ، لنرد له قوته ! لقد جرب فيرجيل يوما أن يرتكن على عبقريته ، ولكنه أدرك للحظته أن هوميروس والطبيعة ليسا إلا شيئا واحداً ؛ فترك مشروعه الجرئ ، مقتنعاً ، مذهولا ، ويلغ به الحرص أن أخضع مؤلفه لقواعد صارمة ، كما لو أن كل فقرة من شعره قد فحصتها عين أرسطو . فليقدر الشعراء إذن عظماء الماضى النموذجيين حق قدرهم : فان تقليدهم تقليد للطبيعة . وبالمثل ، فليتناولوا مؤلفاتهم بالصقل المرة تلو المرة ! إن الأسلوب الذى يبدو سلساً لنتيجة للفن ، لا للمصادفة ؛ إنه لبدارسة الرقص تكتسب سهولة الخطوة . — هكذا يعبر پوب الكلاسيكى . إنه مشبع بمؤلفات أولئك الذين يحيى فيهم أسلافه العظماء ، أرسطو وهوراس ودنيس هاليكرناس وبترون وكنتليان ، ولونجين ؛ وإرازم الذى قهر الخرافة القوطية ، وفيدا الذى يترجم عن تفوق إيطاليا فى عصر ليون العاشر ، وبوالو . إنه يباهى بأولئك الأسلاف الأمجاد الذين ينحنى أمامهم تبجيلا ، ثم يلتفت صوب معاصريه ، زاعما إرشادهم وقيادتهم بدوره .

***

لا بأس بأن نبين بعض المؤلفات ، لتحقيق امتياز النظريات ؛ وكان من اللازم أن يكون هذا أمراً يسيراً . مادامت طريقة نظم الملاحم الشعرية معروفة جيداً ، فماذا ينتظر الشعراء ؟

Excelling that of Mantua, that of Greece,
A wond'rous, unexampled Epick Song,
Where all is just, and beautiful, and strong,
Worthy of Anna's arms, of Malbro's Fire,
Does our best Bard united strength require ...

(١) «بيجاز» : فى الأساطير اليونانية ، فرس ذو جناحين ويعد رمزا للشعر . [المترجمان]

ملحمة شعرية ، تفوق ملاحم مانتوا(١) وملاحم الأغريق ؛ ملحمة رائعة معدومة النظير ، كل مافيها صحيح ، قوى ، جميل ، جدير بأسلحة « آن » ونار « مالبورو » ، — ذلك ما تطلبه القوات المتحدة لأشعر شعرائنا . . . إن ريشارد بلاكمور ، الذى يحمس مواطنيه بهذه الكلمات ، قد ضرب بنفسه مثلا طيباً . هدف الشعر هو تثقيف الذهن وتهذيب الأخلاق ؛ والملحمة هى أسمى أنواع الشعر ، وأكثرها أخلاقية أيضا . فالأبطال الذين تقدمهم ، يعلمون الدين ، والفضيلة ، والسيطرة على الشهوات ، والحكمة : إذن فمن الواجب نظم الملاحم . صحيح أنه منذ هوميروس وفرجيل لم يفلح فى ذلك أحد : ولكن سرد هذا الاخفاق ليس إلى الافتقار إلى العباقرة بل إلى الجهل بالقواعد . واليوم ، لدينا خلاف أرسطو وهوراس ، أدلاء مثل رابين وداسييه ولوبوسيه ، وريمر ؛ إذن لم نعد نجهل شيئا مما يلزم لاتقان التأليف : فلنبدأ .

ويبدأ : « خبرينى ، يا عروس الشعر . . . » فتوحى إليه العروس بقصائد الفروسية « الأمير أرثر » ، و « الملك آرثر » و « إليزا » و« ألفريد » ، وبالقصيدة الفلسفية « الخليقة » ؛ عشرات من الأغانى ، وآلاف مؤلفة من الأشعار . ولكن ريشارد بلاكمور كان طبيباً أكثر منه شاعراً ، فجر النسيان ذيوله على قصائده .

والمسرحية ؟ إن عقلا ممتازاً ، فقيهاً مشهوراً ، هو جان فانسنزو جرافينا ، سوف يقدم لنا النموذج . إنه يدرس البحوث ، وفنون الشعر ؛ إنه لا يقنع بالكلاسيكية الفرنسية ، ولا بمؤلفات النهضة ، بل يصل إلى التراجيديا الاغريقية ، التراجيديا الصحيحة ، الأصلية : وإنه ليملك ناصيتها ، ولن تهرب من قبضته . وفى مقدمة المسرحيات الخمس التى ينشرها فى نابولى فى عام ١٧١٢ ، يعطى جرافينا الكلمة للتراجيديا شخصياً فتصيح : هأنذى ! أخيراً أظهر فى صورتى الأولى ، بعد قرون طوال من الجهل ! أخيراً وصلت ، بارشاد فقيه فى القانون ، خطيب ، فيلسوف ، يحرسنى « العقل الشاعرى » الذى تنقاد له القواعد ، وتوجهنى شعلة النقد ! . . . إن هذه العروس تحسن الكلام : لكن هذا لم يمنع مسرحيات جرافينا من أن تكون مرذولة .

---

(١) مانتوا : بلد فيرجيل فى إيطاليا . [المترجمان]

بدأت فى كل أنحاء أوربا مباراة عامة فى التراجيديا ؛ وأخذت الشعوب المختلفة تسعى للحصول على الجائزة وإكليل الغار ؛ ورجال المسرح يسعون جاهدين من كل صوب . فكريبون Crébillon(١) ينافس راسين : ولكنه يسرف فى الشخصيات البرونزية والسوداء . لقد أخذ الأجنبى ينافس فرنسا : آه ، لو استطاع أن يكسفها ! إن كريبون على الأقل لم يقتصد فى الوقت ولا فى العناء ولا فى عدد المسرحيات ؛ بل بذل كل ما فى وسعه طوال سنين . إنه يوم يستحق الذكر ، يوم قدم المركيز « سيبيونى سافيي » لأول مرة ، فى فيرونا فى ١٢ يونيو ١٧١٣ ، « ميروب » ، تلك المسرحية التى كانت تبدو أكثر كلاسيكية من كل المسرحيات الكلاسيكية الفرنسية ، بالرغم مما كانت عليه من هزال . أى تصفيق ! أولا فى إقطاعيته ، ثم فى كل أنحاء إيطاليا ! وأى نصر ! أى إعجاب بتلك المشاعر الدفاقة ، وتلك المقطوعات المفخمة ، وتلك الأشعار الموزونة بطريقة آلية ! ولقد أثارت هذه المسرحية ضجة كبرى فى أنحاء العالم ، وقد ترجمت ، ونوقشت واستدحت ؛ ثم وصلت فيما بعد إلى جيته عن طريق فولتير وليسنج . والانجليز أيضاً أدركوا جيداً أنه لابد لهم من أن يصلحوا مسرحهم ، وأن يوقفوا تجاوز شكسبير غير اللائق ، وأن يمنعوا « التراجيديا — الكوميدّية » من أن تزعم التشبه بالتراجيديا نفسها ، وأن يحذفوا من المسرح أثر المعارك ، والجلبة ، والمواكب ، والأبواق والطبول ، والاغتيالات ، التى لا يمكن أن تحتمل مشهدها ، إذا أوتينا شيئا من سلامة الذوق ؛ والخلاصة أنهم كانوا يصبون إلى التراجيديا المنتظمة الجميلة ، المرسومة بدراية ، التى لا تبالغ فى الرعب أو الشفقة ، وتبدو متواضعة فى الفروسية ، وسامية دون مغالاة . كانوا يبذلون كل ما فى وسعهم . فنرى ناتانيل لى يؤلف نيرون ، سوفونيزب ، جلوريانا ، والملكات المتنافسات ، وميتريدات ، وأوديب ، وتيودوز ، بروتس وغيرها ، حيث تجتهد عبقريته المفطورة على الارتباك ألا تدخل واقعتين فى مسرحية واحدة ، وأن تحذف منها الحشو غير النافع ، وأن ترضى قاعدة وحدة الزمن المتألهة ، وأن تحترم

---

(١) كريبون : شاعر مسرحى فرنسى : صاحب تراجيديا « راداميس وزنوبيا » (١٦٧٤ - ١٧٦٢). [المترجمان]

العرف ، وألا تتكلم إلا فى لهجة نبيلة مفخمة . ولقد وفق فى بعض الأحيان ، ولم يكن بعيداً عن هذا الانتظام الذى يرى أنه الجمال الأسمى . وكانت مسرحية « البندقية المنقذة » *La Venise Sauvée* التى ألفها أوتواى Otway نجاحا جميلا ، يثبت للأجانب أن المسرح الانجليزى قادر على أن يكون صحيحاً ومؤثراً فى نفس الوقت . ولكن سنة ١٧١٣ تسجل أخيراً الانتصار . يومئذ ظهرت « كاتون » مسرحية أديسون ، الجديرة بأن تترجم على الفور إلى الفرنسية : إن لندن التى كان لديها قرين لبوالو أصبح لديها قرين لراسين ، وبدأت أوروبا تمجد هذه المسرحية الرائعة . إنها نتيجة نصف قرن من الجهد أو مايقرب من ذلك . ولم يكن فى مقدور الانجليز أن يهذبوا مالم يكن مهذبا من عبقريتهم فى مدة أقل من هذه ، وأن ينتجوا هذه التحفة الرائعة .

وتخلف الألمان : ولكنهم مع ذلك سيصلون ، فلنتذرع بالصبر . إن جوتشد Gottsched يتألم من تخبط المسرح الألمانى ؛ فيعكف على العمل ، يقرأ « فن الشعر » لأرسطو وشرحه ، ومسرحيات القدماء ، والشعراء الفرنسيين ، حتى بما تتضمنه من مقدمات ؛ فيستيقظ ، مدركا أن للفن المسرحى قواعد تبلغ من المنطقية ، والقطعية ، وتقضى بها الضرورة الحتمية ، حتى إن ألمانيا قد تظل فى حالة الهمجية طالما ترفض مراعاتها . وعلى ذلك يسعى جوتشد بكل وسيلة ليقف على أسرار الفن ، وأخيراً يقدّم ، منتصراً ، مسرحيته « كاتون على فراش الموت » فى عام ١٧٣٢ . ويقول إنه قد كان يكتفى بترجمة مسرحية أديسون « كاتون » ، لولا أنه وجدها غير كاملة الانتظام ، فيها شئ من الاستطراد ؛ فقد تضمنت بعض الحشو والزخرف ، مما يثقل بناءها بلا مناسبة — وشكراً للسماء ، وشكراً للمؤلف ، فان كل مناظر « كاتون » الألمانية تحدث فى قصر واحد وفى بهو واحد ، ومدة المسرحية « تبتدئ ظهراً وتنتهى مع غروب الشمس . »

وإنه لشئ غريب حقاً ، أن رجلا مثل فولتير — عندما يكتب مسرحيات أو ينظم قصائد — يخرج عن عبقريته الخاصة ، دون أن يستشعر معاصروه ذلك ، ودون أن يستشعره هو نفسه ؛ إذ يريد أن يقلد كورنيل وراسين أو بوالو . إننا لنشعر بشئ من الحزن إذ نرى منذ ذلك العهد — ودون أن ننتظر أن تتقوى « الكلاسيكية الكاذبة » خلال فترة أطول مما رأت أى مدرسة حديثة —

هذه الكتلة المهوشة من القصص الخالية من الروح ، والمسرحيات الخالية من الحقيقة والأشعار الخالية من الشعر . قوة بلا روح . . . هذا هو ثمن الجمائل التى قدمها المذهب الكلاسيكى للعالم . لأن الكلاسيكيين الفرنسيين وصلوا إلى درجة سامية من الكمال ، الذى فتن عقول خلفائهم ، حتى إنهم ظنوا أنه لا وسيلة إلا أن يقلدوهم ؛ ولأن كتاب الصف الثانى — وقد يسارعون إلى السهل — يحبون أن يكرروا مالقى النجاح مرة ؛ ولأن الروح الهندسى قد قضى على حب الأشكال المرنة والألوان الحية ؛ ولأن العقل المسيطر لم يعد يحتمل « أزهار » البلاغة إذا لم تكن سوى أزهاراً ؛ لقد ذوت القوات الغنائية ؛ ووقعت العبقرية الشاعرية فى سبات عميق .

الفصل الثانى

بهجة الحياة

ماداست هذه الحقول من الأزهار الاصطناعية لا أمل فيها ولا حتى سراب ، فلنبحث فى غيرها . . .

إن السيد سبكتاتور يوصى قراءه بالتزام الحكمة والاعتدال : ولكنه ، يتوقف فى أثناء إرشاداته ، ليشيد بمتع الخيال ، وليؤكد أن المتعة التى يهيئها لنا البصر ، لا تقل عن التى يهيئها الذكاء ، بل ليبدى إعجابه بمفارقات شكسبير النبيلة : يروق الفضلاء أن يقتربوا من الينابيع Juvat integros accedere fontes . . . ويوصى علماء إيطاليا باطاعة القواعد : ولكنهم فى الوقت نفسه يحتفظون بمزايا وحقوق بعض الهوى المبدع : حتى رأى الناس فيهم — بشئ من السماحة لا يخلو من الاسراف — أسلاف الرومانتيكيين . يا للتناقض الظريف ! دعوا الفرنسيين يعملوا ، إنهم فى سبيل إخضاع كل شئ للفرجار : اللهم إلا إذا أتت الجنيات تهوش ، فى لعبها ، رسومهم الهندسية . كانت نهاية القرن رزينة ، حزينة ، لتأثرها بالشعور الذى يسود عند اضمحلال العهود العظيمة ؛ لقد خلفت المؤلفات الرائعة كتب النقد ، وعلى حين غرة تخيل ماذا يطلب البدع ؟ وأى كتب تعرض فى واجهات المكتبات ؟ حكايات الجن .

إن معاصرى لويس الرابع عشر المسن ، ومدام دى مانتنون العاقلة المتدينة ، يستلطفون الحكايات التى تقصها « أمنا الاوزة » للأطفال . نستطيع أن نقبل أن ديكارت لم ينبذ نهائيا ، وأن قرعة مذهّبة تستحيل إلى عربة مذهبة ، والعظايات (السحالى) إلى خدم ذوى أردية مزخرفة ، والفئران ذوات الشوارب إلى سواق ذوى شوارب ؛ وبذا نكون قد احتفظنا إلى حد ما بالنسب المعقولة التى يعزها الشعب الفرنسى . ولكن أى مجافاة للمنطق ! إن قصوراً

فاخرة تنكشف فجأة ، قصوراً لا ترى فيها إلا الذهب والياقوت ، ويغطى أبوابها العقيق ، وعليك لكى تلجها أن تشد رجل جدى معلقة فى سلسلة من الماس . الحيوانات تتكلم ؛ فالوعلة التى ترعى فى الغابة ، والهرة التى تأوى إلى ركنها ، هن نساء مسحورات ؛ والطيور الزرق أمراء فاتنون . لا نرى إلا أعاجيب ، وزهوراً ، ومجوهرات ، وزينة خارقة للعادة : قطعة من قماش طولها ٤٠٠ متر تطوى فى حبة صغيرة من الذرة البيضاء ، وإذا بسطت تنفذ من سم خياط ؛ عليها رسم كل حيوان الأرض والبحر والسماء ، مع القمر والشمس والنجوم . والناس يمتطون جياداً من خشب ، تعدو مطلقة العنان ، وتقفز أحسن مما تقفز خيول الأكاديمية ، ويتجولون فى مركبة يشدها خروف سمين خبير بكل الطرق ، أو فى زحافة صغيرة مذهبة ، يجرها أيلان فى سرعة إعجازية ، أو فى كرسى طائر تجره ضفادع مجنحة ، أو فى عجلات نارية تقودها التنانين فى الجوزاء — ولم نعد نتعرف قوانين الدنيا التى تجد بعض القوى السحرية متعة فى قلبها ، فالأجسام تفقد أوزانها ، والأحلام تتحقق ، والفضيلة تنال ثوابها ، والرذيلة تلقى عقابها . وإذا نحن تخلينا عن هذه الحكايات العجيبة ، نجد الحياة من الكآبة والفتور ، بحيث يصبح العيش عناء .

وكانت النساء سباقات إلى جمع هذه الحكايات ، الصادرة من أغوار الزمان والتى توغل فى قدمها حتى لتتعذر معرفة أصلها ؛ هذه الاختلاجات للنفس البدائية ، التى لم تر فى الخليقة كلها ، فى الريح وفى الليل ، فى البريع وفى الشتاء ، إلا سحراً فى سحر . نساءهن حارسات الخيال ، لأنهن أقوى غريزة ، وأكثر حساسية لماضى البشر . ثم أتى شارل بيرو ، ناظر الأملاك الأميرية السابق ، الذى تناول بعض أجنحة الفراش وأولاد العذراء وأشعة القمر ، وبنى بها حكاياته عن الجن ، تلك التحف الرقيقة الخالدة . كانت الحسناء تغفو فى الغابة ، وتوقفت كل حركة ، حتى الأحلام ؛ وكفت العفاريت عن لهوها ، والنزوات عن عبثها ، وخيم الحزن الكئيب على فرساى وعلى المدينة وعلى البلاط ؛ ثم ضربة عصا ، وإذا بكل شئ يفيق ، فيهرول الطهاة ، ويتواثب الخدم ، وتصهل الخيول ، وتتناجى طيور الغابة على الغصون ، فتستيقظ الأميرة ، ثم تبتسم وتعاتب الأمير على تأخره فى الحضور ، وتخبره أنها انتظرته طويلا .

***

أولئك الذين قاموا بالرحلات الحقيقية لم يأتوا لنا بكل مانحبه اليوم ؛ إنهم لم ينقلوا « إنيتهم » إلى الجهات النائية ليعرفوا ماذا يصيبها ، وليشعروا بأثر هبوب الرياح المجهولة عليها . ومع ذلك فنحن لم نقل كل شئ إذا لم نتحدث إلا عن أفكارهم . هل كانوا عقولا خالصة ؟ ألم تبدأ عيونهم تتفتح أمام بهجة الدنيا ؟ ألم يقدموا لقرن قد تشبع بالذكاء ، صوراً تغريه ؟

لقد ظهرت فى أوروبا نفسها ، أراض عجيبة ، كما لو كانت جزرا جديدة فى وسط محيط مألوف . تلك هى لابلاندة التى كانت تتبدى رويداً رويداً من خلال الظلام الكثيف . يقول الرحالة فرانسو برنييه إن اللابلانديين قوم غرباء ، فطس الأنوف ، « قصيرو القامة ، أقوياء السيقان ، عريضو الأكتاف ، قصيرو العنق ، طوال الوجوه يشعو الخلقة كالدببة ، يشربون زيت السمك فى جنون . . . » بلاد عجيبة ، حيث لا تغرب الشمس صيفا ولا تشرق شتاء ، حيث تحل الرنة محل الحصان ، حيث يتزلق الناس على ألواح مشدودة إلى الأقدام ، حيث ينتاب السحرة رعب شديد لقاء « نعم » أو « لا » . إنها تبلغ من الغرابة بحيث ينقل عنها السياح « وصفاً لدنيا جديدة أكثر منه رواية عن شطر من قارتنا . . . » .

وما أغرب مالم يزل يرد من ولايات المغرب من روايات ، ومغامرات بحرية ، وحوادث أسر ، وهروب ونجاة ، وفرقة أحباب وملاقاة ، وشهداء وعصاة ، وباشوات وانكشارية ، وغادات يذرفن الدموع ، أسيرات فى القصور ، وأجانب يشفقون على دموعهن ، وحراس يراقبون سجناء ينحنون على المجاذيف ، ومبعوثين يحضرون معهم بكل عناء ، فديات ضخمة بالعملة الاسبانية أو الفرنسية . تلك الروايات التى لم يكف الناس عن تكرارها وتوشيتها ، كانت تحظى دائماً بالاعجاب . خواتم الكوميديات ، مغامرات قصص الحب ، ووقائع حقيقية أكثر روائية من الروايات .

وقد ورد من أورشليم ، بيت المقدس ، مرة على الأقل ، أنين شاعرى أليم . أيا أورشليم ! أيتها المدينة التعسة ! يا مدينة القبور ! إن الهياكل العظمية ،

والعظام المنفصلة ، العظام المحطمة التى نراها فى المقابر توحى بأفكار مفجعة ، تبدت فى « تأملات » :

Is this, alas! our boasted mortal State?
Is it fort this, we covet to be great?
What Happiness from envied Grandeur springs,
When these poor Reliques once were mighty kings?
O frail uncertainty of human Power,
While Graves can Majesty itself devour! (١)

إن الذى يئن هذا الأنين ، ليس يونج فى « لياليه » ، وليس هيرف فى « مقابره » ، بل هو آرون هل الرومانتيكى ، آرون هل ، السائح فى الأرض المقدسة .

لو أن لويس الرابع عشر قرأ الرسائل التى كان يرسلها الأب بريمار من كانتون إلى الأب لاشيز ، لخالجه الريب فى وجود أمساخ أغرب مما كان مصوراً فى لوحات الهولانديين . كانتون ؛ أى بلد غريب ! تخيل الأزقة الضيقة ، التى تعج بشعب بأكمله : ترى حمالين حفاة الأقدام ، يغطون رءوسهم بقبعة من القش ، تقيهم المطر والشمس معاً ؛ ومقاعد غريبة بدلا من العربة ، والأب بريمار نفسه يتنزه فى مقعد ضخم مذهب ، يحمله ستة رجال أو ثمانية على أكتافهم ؛ وحرساً محارباً ، لأن سونج — تو ، أعنى حاكم ولايتين ، لا يخرج أبداً إلا وترافقه حاشية من مائة شخص على الأقل . . . « يخيل إلى أن كل ماقلته لك هنا ، يعطيك فكرة عن مدينة حديثة ، لا تمت بصلة إلى باريس . وحتى لو نظرنا إلى البيوت وحدها ، فأى أثر تترك فينا شوارع بأكملها لا ترى فيها أى نافذة ، بل كلها حوانيت ، معظمها فقير ، مدخلها سياج بسيط من القصب بدلا من الباب ؟ . . . (٢) » أضف إلى ذلك المعابد pagodes التى

---

(١) أهذه إذن ، وآسفاه ، حالتنا الفانية التى نباهى بها ؟ — أمن أجل ذلك نبتغى المعالى ؟ — أى سعادة إذن فى المعالى المشتهاة — بينما هذه الاشلاء التعسة كانت يوما ملوكا عظماء ؟ — ياللقدرة البشرية الضعيفة التى لا أمان فيها — ما دام القبر قادرا على التهام العظمة نفسها !

(٢) رسالة من الأب دى بريمار إلى الأب لاشيز . فى كانتون ١٧ فبراير ١٦٩٩ . (رسائل غريبة مرسلة من البعثات الأجنبية ، الجزء الأول ، ١٧٠٣) .

يقوم على خدمتها رهبان بوذا ، وبوابات الشوارع التى تغلق فى آخر النهار ، وعلى النهر مدينة بأكملها عائمة ، وقوارب تقطن كل واحد منها أسرة ؛ ومزارع الأرز فى الريف . . .

ومن بلاد الهند الغربية ، من « الجزر » ، وصلت صورة المغامرة ذاتها ، صورة أخطر المغامرين على الأرض أو المياه . كانت قيادتهم العامة فى جزيرة « السلحفاة » على مقربة من « سان دمنجو » : عصبة من الأشرار desperados من كل بلد ومن كل جنس ، يعيشون فى ظل قانون لشرف يخصهم وحدهم ، شرف ينفردون به دون بقية البشر . إنهم القراصنة : طائفة البوكانييه ، Boucaniers وطائفة الفليبوستييه Flibustiers . الأولون يصيدون الثيران من أجل جلودها ، والخنازير البرية من أجل لحومها . ويتعقبون طريدتهم وقد حملوا البنادق الطويلة المصنوعة خصيصاً لهم فى ديبب أو نانت ، تتبعهم كلاب الصيد ، ويساعدهم الخدم الذين يتعهدون بالخدمة لمدة ثلاث سنوات ، يصبحون بعدها رفاقا لهم إذا توافرت فيهم القوة والشجاعة : فاذا قتلوا حيوانا ، استخرج الزعيم العظام الأربعة الكبيرة ، وكسرها ثم امتص نخاعها الدافئ : ذلك هو إفطاره . وإنهم لمن المهارة فى التصويب حتى إنهم ، على سبيل التسلية ، يقطعون عنق البرتقالة دون أن تمس القذيفة الفاكهة ؛ وبعضهم من الخفة بحيث يلحقون الثور فى عدوه ويقطعون فخذه . فى خلقهم الجفوة والقسوة ، الشراسة ، والوحشية ، وهم على استعداد دائم لاراقة الدماء ، ولكنهم شجعان بين الشجعان ، بهم حساسية عجيبة للصداقة .

أما الطائفة الثانية (الفليبوستييه) فهم صيادو البحار . إنهم يلقون بأنفسهم على أمواج المحيط ، يطاردون السفن الكبيرة ، وعلى الأخص الاسبانية ، التى تمر مشحونة بذهب بلاد الهند ، ويهجمون ، ويغتالون البحارة ، فتصبح السفينة لهم ؛ ومن عراك إلى عراك ، ومن نصر إلى نصر ، يجمعون الغنائم : إلى أن يرسوا فى ميناء ذات يوم حيث ينفقون مالهم فى جنون ، مثل أولئك الذين أسروا ، عند وصولهم إلى بوردو ، بعد حصولهم على غنائم هائلة ، يحملهم على مقاعد ، تحف بهم المشاعل ، فى وضح النهار .

وأولئك القراصنة بما أوتوا من شجاعة ووحشية ، يصلون إلى ذروة الفروسية . منهم من يدعى اسكندر الملقب بالذراع الحديدية لقوة بأسه ، « الذى سجل

اسمه بين المغامرين بقدر ماسجل الاسكندر القديم اسمه بين الفاتحين » ؛ ومنهم بطرس الأكبر ، من أهل ديبب ؛ وروك ، الملقب بالبرازيلى من أهل جرونيج ؛ وسورجان الغالى ؛ والربان مونتوبان ، الذى جال عشرين عاما حول شواطئ إسبانيا الجديدة وقرطاجنة والمكسيك وفلوريدا ويورك الجديدة وجزر الكنار والرأس الأخضر . ورابط القرصان « لولونوا » ، من سكان بواتو ، بسفينته أمام كوبا ، على رأس واحد وعشرين رجلا ؛ واستولى على السفينة التى كلفت بمطاردته ، وعندئذ علم أن الحاكم الاسبانى قد أعد على ظهر هذه السفينة جلاداً خصيصاً لشنق القراصنة . « وعصف بلولونوا الغضب عندما سمع بكلمتى الجلاد والشنق ، وعندئذ أمر الاسبان من خلال كوة سطح السفينة بالصعود فرادى ؛ حتى إذا صعدوا أطاح رءوسهم بسيفه . ولقد أتم هذه المجزرة وحده حتى آخر إسبانى . » ولقد استولى لولونوا على مكاراييو وجبل طارق فى ولاية فنزويلا . « ولما جمع كل شئ ، وجد أنه بتعداد الحلى ، والنقود ، بحسبان الجنيه عشرة « أيكوسات » ، كان لديه مائتان وستون ألف إيكوس ، بخلاف الغنائم الأخرى التى كانت تساوى مائة ألف على الأقل ؛ غير ما سبب من تلف يفوق المليون إيكوس ، من كنائس مخربة ، وأثاثات مدمرة ، وسفن محرقة ، منها واحدة مشحونة بالطباق ، استولى عليها ، ولا تقل قيمتها عن مائة ألف جنيه » . وكانت نهاية لولونوا مشئومة : « كان من سوء حظه أن وقع فى يد الوحوش الذين يسميهم الاسبان الهنود الشجعان Indios bravos ، قطعوه إربا إربا وشووه على النار وأكلوه (١) . »

وكانت تصل من الشرق أروع الحكايات ؛ ذلك « أننا نعلم أن الشرقيين يفوقون كل الشعوب الأخرى فى ناحية الأعاجيب » . نشر أنطون جالاند من عام ١٧٠٤ إلى ١٧١١ ترجمته لألف ليلة وليلة . لما بدأت شهر زاد تحكى رواياتها الليلية ، وتبدى ، بلا كلل ، موارد خيالها التى لا تغيض ، وقد تغذى بأحلام بلاد العرب وسوريا والشرق الأدنى العريض ؛ ولما أخذت تصف أخلاق الشرقيين وعاداتهم ، ومراسيم دينهم ، وتقاليدهم البيتية ، تلك الحياة

---

(١) ا.و. أوكسميلين ، القرصان فى أمريكا ، امستردام ١٦٧٨ . ترجمة فرنسية ١٦٨٦ .
A. O. Œxmelin, *De Americansche Zee-Rovers*, Amsterdam, 1678.

الساطعة المتعددة الألوان ؛ ولما بينت كيف يمكن اجتذاب الناس وافتتانهم ، لا بالاستدلال المنطقى ، بل بنضرة الألوان وسحر الأقاصيص : حينئذ تحرقت أوروبا كلها للاستماع إليها ، حينئذ احتلت السلطانات والوزراء ، والدراويش ، والأطباء اليونانيون ، والرقيق السود — مكان الجنية « كارابوس » والجنية « أورورا » ؛ حينئذ احتلت فنون العمارة الرقيقة الهوائية ، والنافورات ، وأحواض الاستحمام التى تحرسها أسود من ذهب مصبوب ، والأبهاء الواسعة المزينة بالحرائر وأقمشة مكة — مكان القصور حيث كان « الوحش » ينتظر استيقاظ «الحسناء» للعشق(١) ؛ حينئذ خلفت بدعة ، بدعة أخرى : ولكن الأمر الذى لم يتغير هو مايتطلبه الانسان ، الذى يريد قصصاً تلو قصص وأحلاما تلو أحلام ، إلى الأبد . . .

صور . . . إن السياح يزينون رواياتهم بالرسوم والنقوش ، معابد الصين ، والأفاعى أو فنن الجبال المستديرة أو كهنة سيام « الطالابوان » ، والنباتات العجيبة التى تنبت فى حدائق سالابار . ونقش الأب بوفيه لوحات تبين للفرنسيين ، المندهشين ، ثياب موظفى الصين ؛ وأوصى السيد دى فريول وزير البلاط الفرنسى لدى السلطان الأعظم ، على مجموعة من مائة طابع ، ليبين لسكان باريس ثياب الشرق الفاخرة . ويقدم البعض للقارئ مناظر ولوحات ،مستغلين تلك النماذج الأجنبية : همجى يقدم مشعلا لسيدته فى فراشها ؛ كشافون يدخلون هرما مصريا حيث تلقى مشاعلهم أنواراً غريبة على المدافن التى تطاول الدهر فى القدم . كثيرا ماتبدو تلك الرسوم مليئة بالفتنة ، تلك الرسوم التى ترد من القصى البعيد ، من المجهول ؛ وكأنما تعيد جدتها للفنانين الحيوية التى فقدوها من كثرة تقليدهم للنماذج القديمة . وأحيانا كان السائح نفسه ينقلب إلى رسام ، لعلمه بأنه سيكون أقوى تأثيراً على العقول ، بتمثيل الأشكال المباشر ، مما إذا التجأ إلى الكلمات والجمل : إن كورنليوس فان برون يقف أمام نماذجه ، واعيا ، جادا كأنه يقوم بواجب مقدس : إنه مبعوث الحقيقة .

ولكن هل يتعلق الأمر بالكتب فحسب ؟ إن الزوار مختلفى الألوان ،

---

(١) الحسناء والوحش : قصة كتبتها مدام لو برانس دى بومو . اضطر تاجر أن يسلم إحدى بناته لوحش مخيف . لكنه أحب الفتاة التى أحبته بدورها لطيبة قلبه . وجعله هذا الحب يستعيد أصله النبيل ، كأمير ، ويتزوجان . [المترجمان]

القادمين من الجزر ، ومن بنجكوك ، ومن بكين يعمرون الأفق المألوف . وأقمشة الفلاندر المزركشة تتخذ أرجاء المعمورة الأربعة موضوعا لها ؛ والصينيون الذين مثلهم الناس فى الأوبرا وفى مسارح الأسواق من قبل ، قد سجلت رسومهم الآن على السجف والجدران . والأوانى الصينية وأطليتها الزاهية ، لا تتأخر فى وصولها عن أفكار كونفوشيوس .

سبينوزا ، مالبرانش ، ليبنتز : ولكن أيضاً اسكندر ذو الذراع الحديدية وشهر زاد . النظريات الميتافيزيقية الكبرى ، المستندة على العقل ؛ ولكن أيضاً الخيال الذى يتسكع فى قصص الجن والسحر ، والعين التى تحلم فى وجل وهى تنظر إلى وحيد القرن وجاسوس البحر . كل هذا الجهد العظيم لتفسير الدنيا ، فى الأعماق ؛ وعلى السطح تلك اللمعات والألاعيب .

***

أما « الطبيعة العلة » ، و « الرؤية عن طريق الله » (١) ، فان طائفة كبيرة من المرحين الأفاقين السكارى النشالين تهتم بها اهتمام السمكة بالتفاحة ؛ بل قل إن « الاتساق المقدر » (٢) الوحيد الذى يهم أولئك الأشرار هو الاتساق الذى يشعرون به بين حلقهم والنبيذ الجيد . إنهم يواصلون طريقهم دون أن يتساءلوا من أين يأتون ودون أن يعرفوا إلى أين ينتهى بهم الطريق ؛ فما جدوى ذلك ؟ المهم هو الحياة ، فكلب حى خير من فيلسوف ميت . الواقع الملموس : ذلك هو ميدانهم . وهم يجولون فيه بكل مرح ، مصفرين ، مغنين ، مفرطين فى الطعام والشراب ، منتفعين من الحمقى والبلهاء ، سعداء بالحياة ؛ لا يأبهون بالموت ولا بالآخرة .

لابد من أن طراز الصعلوك ، الفاجر ، النشال ، يتضمن فى ذاته شيئا من الحقيقة السيكولوجية ، أو قيمة رمزية ، أو آية من القوة المسلية ، مادام

---

(١) الطبيعة العلة Nature Naturente : فى فلسفة اسبينوزا يطلق هذا التعبير على الطبيعة التى تعد علة لظواهرها . الرؤية عن طريق الله Vision en Dieu : نظرية مالبرانش المشهورة وقد سبق الكلام عنها فى فصل « العقليين » القسم الثانى . [المترجمان]

(٢) الاتساق المقدر : l'Harmonie préétablie : نظرية فلسفية لليبنتز سنتكلم عنها فى فصل « ميتافيزيقا الجوهر » من القسم الرابع . [المترجمان]

لا يكف عن افتتان الأجيال وإن اتخذ صوراً مختلفة . إيه يا « بيكارو »(١) الخالد ! إن أبناء وأحفاد « جوزمان دالفاراش »(٢) و « لازاريلو دى تورمس » لازالوا يذرعون الدنيا ، كتفا إلى كتف ، مع نسل « بانورج »(٣) ابن عمهم الانجليزى . لكن جماعتهم التى لا تكل قد ازدادت بامدادات جديدة . فى لندن يترك ندوارد Nedward حانته ، وقد كان جالساً قبل ذلك مع لفيف من أخصائه ، وأمامه أوزتان مشويتان ، ورأس عجل ، وقطعة ضخمة من جبن تشستر : كل هذا قد سقى بعدد كبير من كؤوس الجعة ، كبداية ، ثم من كؤوس « البورتو » فى النهاية . وعند خروجه من الحانة ، يصادف فى طريقه لوك ، صامويل كلارك ، بويل ، أو نيوتون ، ثم يتجول خلال الشوارع والميادين ، ويلج حانات أخرى ، ومنازل وكنائس ومصارف ومتاحف ، وكل مكان يمكن للمرء أن يقابل فيه نماذج ظريفة لهذا الجنس الغريب ، الذى يدعى البشرية . حينئذ أخذ يصفهم فى لهجة قاسية ، وصور آسرة وأسلوب ممتع : يبدو كأنه لا يفرغ ، يفيض بالدعابة والسخرية ، ويجعل من كل فصل من كتابه «جاسوس لندن » *Espion de Londres* ملهاة واقعية : واقعية ومرحة ، تلك هى الآية التى كان يأتى بها ويجددها كل يوم . وكان على مقربة منه توم براون البوهيمى بين البوهيميين ، الساخر بين الساخرين ، المستعد دائما لأن يؤجر قلمه ، وأن ينفق ما كسبه بفضله ، يراقب من جهته هوس المدينة الكبيرة . وبعد ؟ هل الحياة إلا التسلية ؟ البعض يتسلى بالطموح ، والبعض يتسلى بالمنفعة ، والآخر بتلك العاطفة السخيفة ، الحب . الصغار يتسلون بالمتع الصغيرة ، والعظام يتسلون باكتساب المجد : وأنا أتسلى بالتفكير فى أن كل هذا لا شئ ، لاشئ إلا تسلية . . .

هكذا تكلم هذا العالم الأخلاقى الغريب ، الذى مات فى الواحدة والأربعين من عمره ، بعد أن ثمل وأحب ، واستدان ، وتعدى رقاده فى السجن رصيده .

---

(١) شخصية مألوفة فى القصة الاسبانية تدل على الأشقياء . [المترجمان]

(٢) شخصية من رواية اسبانية فى القرن السادس عشر . [المترجمان]

(٣) شخصية معروفة من رواية « بانتاجرويل » *Pantagruel* للكاتب الفرنسى رابليه Rabelais . [المترجمان]

وفى تلك الأثناء كان « الشيطان الأعرج »(١) يتسلى بين باريس ومدريد بنفس الطريقة : ولكنه كان يؤثر أن يرفع سقف المنازل — بدلا من أن يلجها من الأبواب — ليكتشف أناساً يعادون الميتافيزيقا ، والبطولة ، وينغمسون فى غمار المادة ولا يعتقدون أن فى ذلك ضرراً لهم أو سوءا ، أو على الأصح لا يفكرون فى شئ : إنهم قانعون بالوجود . « صورة لما تتكلفه المخلوقات التعسة الفانية من عناية وحركة ومشقة ، لتملأ — على أفضل صورة فى مقدورها — تلك الفترة القصيرة بين حياتها وموتها . » (٢) لا أفضل ولا أكثر ؛ ولا أى سؤال فيما يتعلق بالحقائق السامية ، بل حتى فيما يبدو ، لا قلق على الاطلاق ، ولا أى حب استطلاع . الحقيقة الواقعية هنا ، هى قبح النفوس والأجساد ؛ يكفى أن تزيل قليلا قشور المظاهر لتجدها ، ولا تجد سواها . « إنى أرى فى المنزل المجاور لوحتين ممتعتين ، إحداهما لغانية عبثت الأيام بشبابها ، تخلع قبل النوم شعرها ، وحاجبيها وأسنانها وتتركها على منضدة لزينة ؛ والأخرى لشيخ متصاب فى الستين من عمره ، عائد من موعد غرام . وقد خلع عينه وشاربه الصناعى ، مع شعره المستعار الذى كان يخفى رأساً أصلع . وهو ينتظر أن يخلع له خادمه ذراعه وساقه الخشبيتين ، لكى يذهب إلى فراشه مع ما تبقى . » إذن ، هل الجمال لا وجود له ؟ ألا رجاء لنا فى أن نجده ؟ يقول زامبولو : « إذا صدقت عينى ، أرى فى هذا المنزل فتاة رائعة القوام ، تستحق التصوير — ويرد الأعرج : « حسنا ، إن هذه الفتاة الجميلة التى تفتنك هى الأخت الكبيرة لذلك الشيخ المتصابى الذى يوشك أن ينام . يمكن القول بأنها زميلة هذه الغانية العجوز التى تقيم معها . إن قوامها الذى يحظى باعجابك لآلة استنفدت كل الفن الميكانيكى . إن عنقها وفخذها اصطناعيان . . . ومع ذلك فان تصابيها أوقع عاشقين شابين فى منافسة من أجل مفاتنها ، حتى نشب بينهما عراك من أجلها . يا لجنونهما ! يخيل إلى أنى أرى كلبين يقتتلان من أجل عظمة . » إن كتاب « الشيطان الأعرج » يخلو من الأفكار ، بل يتضمن رأيا مبتسراً من خيال سقيم أو أسود . إن ليساج سيصل إلى أوج الكمال فى مؤلفه « جيل

---

(١) كتاب ألفه ليساج Lesage ، واسم هذا الشيطان أزموديه Asmodeé . [المترجمان]
(٢) آلان رينيه ليساج ، الشيطان الأعرج ، ١٧٠٧ .

بلاس » — *Gil Blas* الذى ظهر القسم الأول منه فى عام ١٧١٥ : حيث يبدو البطل أرق حاشية ، وأوفر فطنة ، وأكثر تركيبا ؛ وحيث يبدو المؤلف أكثر تعمقاً فى دراسته ، والأسلوب أكثر سلاسة وطبيعية : ومع ذلك لازلنا على مبعدة من التراجيديا الميتافيزيقية .

***

وأخيراً ، هاك نبلاء حسنى المظهر ، يقفون فى مؤخرة الصفوف ، كأنما يخجلهم التحاقهم بهذه الفرقة ، ولكن فيهم نقصا هو عدم الاهتمام بالمسألة الأخلاقية ، أو التفكير فى شأنها فى وقت متأخر ، حتى ليمكن أن نقول عنهم ماقاله صاحب الفندق فى «إسبين» عن مانون ليسكو وعشيقها دى جريو : إنهما ظريفان ، ولكنهما أفاقان إلى حد ما . فأولئك النبلاء لايعيشون إلا للمغامرة ، والرحلات ، والمقامرة والعشق ؛ تستهويهم الحيلة والاختلاس اللطيف ، والجرأة ، وضربات السيف التى يسرفون فى توزيعها والتى أحيانا يتلقونها : ولكنهم لا يموتون أبداً . يعالجون جراحهم ، ويلتزمون فراشهم : وبعد ثمانية أيام يغادرون الفراش ، ويبدأون من جديد حياتهم الصاخبة الناهكة ، والتى تدير أقل رواية عنها رءوس البورجوازيين الهادئين . يمكن تسمية كل منهم بنفس اللقب الذى خلعه جاسيان دى كورتيلز على أحد أبطاله ، والذى أطلق فى الدنيا عدداً وافراً من الأشقياء Picaros المتنكرين فى ثياب النبلاء ؛ يمكن تسمية كل منهم « شفالييه هازار » . أى حياة ! أى نسق جنونى ! « لم يعرف الشفالييه هازار أبداً أبا ولا أما ؛ لقد وجد فى لفة على عتبة كنيسة وتربى على حساب الكنيسة ، ويترك مربيه ليجرب حظه فى جهة أخرى ؛ وتلحقه سيدة نبيلة ليتمرن فى حانوت صائغ ؛ ويهرب من معلمه لينضم إلى الجيش ؛ ويلتحق بالقوات البحرية للورد (س. ت) ؛ وتغرق السفينة التى يعمل بها ؛ وينقذ نفسه بمعجزة مع أحد البحارة ؛ ويبحر إلى بوسطون ؛ حيث يقتل صديقه فى عراك مقامرة ، ويأخذ بثأر صديقه وإن كان هذا يضر بحبه لعشيقته ؛ ويتهم بأنه حمّل فتاة سفاحا ، ويوشك على الزواج بفتاة أخرى ؛ ويهاجمه البعض فى الطريق ويصاب بطلق نارى ، ويصبح جرحه خطيراً ؛ وفى تلك الأثناء تقام العراقيل فى طريق زواجه ؛ تريد الفتاة

الحامل أن تتزوجه ، وترفع عليه دعوى ؛ ويريد شقيقها أن يغتاله ، ويهاجم مرة أخرى ؛ ويصاب بأربعة جراح ؛ وبعد شفائه ، تصاب عشيقته بالجدرى ثم تموت . . . (١)» . إذا كان هذا الرجل المضطرب المسكين ، مشغولا إلى هذا الحد ، وعلى هذا المنوال ، فكيف يجد وقتا للتفكير ؟

وأكثر أولئك المغامرين المشاهير جاذبية ، ليس المركيز دى مونبران ، ولا الشفالييه دى روهان ، الأمير العاثر الحظ ، ولا حتى دارتانيان الذى قدر له مستقبل بمثل هذا الجمال ، بعد ما نام مائة وخمسين عاما ؛ بل هو الكونت دى جرامون الذى وجد أنطونى هاملتون متعة فى نشر حياته (٢) . من ذا الذى لا يعرف هذه الصورة الساطعة ، التى أهداها إنجليزى إلى الأدب الفرنسى ؟ من ذا الذى لم يتابع الكونت دى جرامون فى سنوات تمرينه ، وفى حملاته فى بيمونت ، وفى إقامته فى البلاط الانجليزى الذى أصبح قدوة سيئة فيه ؟ من ذا الذى لم يبتسم لتلك الذكريات الظريفة ، لصورة زميله ماتا ، لصورة الآنسة دى سان جرمان ، أو المركيزة دى سينانت ؟ من ذا الذى لم يعجب بما فى القصة من حرية ، وبهجة ، ودسامة ، وقوة ، ودعابة ؟ فلندع هاملتون نفسه يقول لنا كيف اهتم بالشخصيات لا بالأخلاق ؛ بالنواحى البارزة لا بالخير والشر ؛ بالحياة لا بالتفلسف : — « إن الموضوع هو وصف رجل تغطى شخصيته التى لا نظير لها على نقائص لا نزعم إخفاءها ؛ رجل يشتهر بمزاج من الرذائل والفضائل التى يبدو أنها تندمج فى تسلسل لازم ، فريدة فى توافقها التام ، ساطعة فى تعارضها . إن هذا الجانب البارز الذى لا يفهم ، هو الذى جعل الكونت دى جرامون — فى الحرب ، والغرام ، والمغامرة ، وفى مختلف ظروف حياة طويلة — موضع إعجاب عصره ... » . النشاط الحيوى : ذلك فى الحق ، ماشله جرامون فى شخصه ، وما ترجم هاملتون عنه .

إنه لمن السذاجة أن نتعجب أمام ذلك المشهد البهيج من هرج الناس ومرجهم ، الذى ينعكس فى الأدب . لكننا كنا قد نسيناه ، إذ لم نتطلع إلا إلى حالق .

---

(١) مذكرات الشيفالييه هازار ، مترجمة عن النسخة الانجليزية الأصلية ، فى كولونيا ، عند بيير لوسالسير ، ١٧٠٣ .

(٢) مذكرات حياة الكونت دى جرامون ، تتضمن على الأخص التاريخ الغرامى للبلاط الانجليزى فى عهد شارل الثانى ، كولونيا ، بيير مارتو ، ١٧١٣ .

الفصل الثالث

الضحك والدموع وانتصار الأوبرا

Je chante les combats, et ce prélat terrible
Qui, par ses longs travaux et sa force invincible,
Dans une illustre église exerçant son grand cœur,
Fit placer à la fin un lutrin dans le chœur ... (١)

اختيار موضوع تافه ونظمه على طريقة الملحمة ، بدلا من ترجمة «أنابيد» فرجيل Énéide فى أسلوب هزلى ؛ وصف النزاع والكفاح بين أمين صندوق كنيسة وخصمه المرتل ؛ إضفاء مظهر هزلى على المحسنات الضرورية فى القصائد الكبرى ، من وصف ، وعراك ، وقتال ، وتنبؤ ، وأحلام : هل هذا حقا يثير الضحك ؟

ومع ذلك ، فكثيراً ما أضحكنا شعر « المقرأ » Le Lutrin عندما كنا فى المدرسة ، ولم يكن لنا غذاء آخر ؛ ولقد أضحك أوروبا قبل زمننا بمائتى عام ، ولم تكن قد ملت بعد ، أوربا الكلاسيكية ، أوربا الأفاضل . صفوة أوربا كلها ، مادام ليس هناك بلد لم يلق فيه الاعجاب هذا المؤلف الممتع للسيد بوالو — الهجاء الكبير — ، ولم يترجم ولم يقلد ؛ ومادام واحد من خيرة أطباء لندن — صامويل جارث — لم يجد المجد الشعرى إلا فى إعادة الموضوع نفسه ، أى بتحويل « المقرأ » إلى « الصيدلية » ، باستبدال الأطباء بالرهبان ، والصيادلة بالمرتلين ، وبما يتبعهم من محاقن ومدقات وهاونات :

---

(١) أترنم بالمعارك ، وبهذا القسيس الغريب — الذى كان يرتل بقلبه فى كنيسة مشهورة — والذى نجح بعد جهد كبير وبقوته التى لا تغلب — فى وضع المقرأ بين جوقة المرتلين . . .

(شعر هزلى كتبه بوالو يصف فيه نزاعا بين أمين صندوق ومرتل فى كنيسة واسم هذه القصيدة الهزلية «المقرأ» *Lutrin* . [المترجمان]

Muse, raconte-moi les débats salutaires
Des médecins de Londres et des apothicaires
Contre le genre humain si longtemps réunis :
Quel Dieu, pour nous sauver, les rendit ennemis?
Comment laissèrent-ils respirer leurs malades,
Pour frapper à grands coups sur leurs chers camarades?
Comment changèrent-ils leur coiffure en armet,
La seringue en canon, la pilule en boulet?
Ils connurent la gloire : acharnés l'un sur l'autre,
Ils prodiguaient leur vie et nous laissaient la nôtre ... (١)

وبالمثل : اتخاذ بعض أشعار ملتون كعنوان ، وجعلها تنتهى إلى سقطة مضحكة :

Sing, Heavenly Muse,
Things unattempted yet in Prose or Rhyme,
A shilling ... (٢)

أما وقد أضفينا هذه النغمة ، وتغنينا فى أشعار هائلة بسعادة رجل يملك شلنا ، شلنا جميلا ، جديدا ، لامعا ؛ رجل لم يعد بعدئذ يخشى الفقر الشاحب الوجه ، ويستطيع أن يلج حانة حيث يطلب جعة راغية ، ومحاراً طازجا ؛ ولا يسمح أبداً للحزن أن يبدى وجهه تماما ، بل يطرده ببعض الحيلة الفكهة ، بمجرد ما ينوى أن يستقر — هل فى هذا شئ يضحك؟ أجل ، مادامت صحيفة « تتلر » قد أعلنت أن أجمل شعر هزلى نظم باللغة الانجليزية هو « الشلن الرائع » *The Splendid Shilling* لجون فيليبس .

---

(١) ياعروس الشعر ، احكى لى عن هذا الجدال الناجح — بين أطباء لندن والصيادلة — المتحدين ضد الجنس البشرى منذ زمن طويل : — أى قدرة إلهية أوقعتهم فى عداء لانقاذنا ؟ — كيف تركوا مرضاهم يتنفسون — ليوجهوا إلى أصدقائهم الأعزاء أعنف الضربات ؟ — كيف حولوا القلنسوة إلى خوذة — والمحقن إلى مدفع ، والحبة إلى قنبلة ؟ — لقد عرفوا المجد : فضحوا بحياتهم ، وقد تحمسوا فى تقاتلهم — وتركوا لنا حياتنا . . .
فولتير ، تعليقا على « صيدلية » صامويل جارت ، ١٦٩٩ . فى القاموس الفلسفى باب بوفون Bouffon .

(٢) غنى ، أيتها العروس السماوية — أشياء لم يسبق لها مثيل فى نثر أو شعر — شلن واحد . . . (ج. فيلبس ، الشلن الرائع ، ١٧٠١ و ١٧٠٥) .

وبالمثل أيضاً يجلس بوب إلى مكتبه ، ويتفنن فى نظم « خصلة الشعر المغتصبة »(١) . وإنه لفخور بالجديد الذى وجده ، مثلما كان بوالو فخوراً بانتاجه مؤلفا ليس له مثيل فى الفرنسية . فى كل أشعار البطولة الهزلية ، لابد من عدة ؛ وهذا تعبير اخترعه المهرة ، دلالة على الآلهة التى توجه الحركة ، وعلى هذه العدة تتوقف الأعجوبة . وعلى ذلك ، خطر بباله أن يستعمل بدلا من الملائكة والشياطين التى كلت من طول الخدمة ، جنيات الهواء Sylphides وأقزام البحر الخارقة للعادة gnomes وعرائس الشتاء : شخصيات مقترضة من عالم السحر ، ذلك أن المسألة ليست عدم الاقتراض ، بل الغرض هو التوصل إلى مقرضين جدد . ثم يخترع سوراً جديداً ؛ فلو أنه وصف موضوعات لا يسهل إدخالها فى نطاق الشعر ، مثل مباراة فى لعب الورق ، فأى فضل ! إن الصعوبة المذللة هى الفن العظيم — نبيل عاشق يقص خصلة شقراء من حسناء ، فتغضب أشد الغضب ، ويتبع ذلك هياج شديد فى عالم الانس والجن . عقدة خفيفة لقصيدة قديمة ؛ بعض أزهار دقيقة مطرزة بتفنن ، وبعض الفطنة ، وبعض البريق الأخاذ : هل فى هذا ضحك ؟

وكان الضحك الايطالى أعلى رنينا على كل حال . كانت عروس الشعر فى الريف التوسكانى ، تستشعر حرية أوفر ، وخفة أكثر ، وتنطلق على سجيتها دون كبير تكلف :

Non è figlia del Sol la Musa mia,
Nè ha cetra d'oro o d'ebano contesta
È rozza villanella, e si trastulla
Cantando in aria... (٢)

والحق أنها كانت تريد هى الأخرى ، جعل قصص البطولة مهازل : لكن دون تكلف ، alla buona ؛ وإن اختلط الأمر عليها ، كالنمل الذى يصادف فى طريقه حصا أو دقيقا ، فانه لا يجد فى ذلك إلا لهواً :

---

(١) *The rape of the Lock*, 1712 .

(٢) عروسى أنا ، ليست ابنة للشمس — ليس لها قيثار من ذهب ، أو مطعم بالآبنوس — إنها ريفية خشنة ، تتسلى — بالغناء فى الهواء . . .

Ma canta per istar allegramente,
E accio' che si rallegri ancor chi l'ode;
Nè sa, nè bada a regole niente... (١)

وهى إذن لم تكن تتردد . لم يعد هناك حب سماوى ، ولا شرف سام ، ولا روح فروسية ؛ لقد تحول الفرسان البواسل إلى غلاظ ثقلاء ، أفاقين ، سكارى :

E Rinaldo ed Orlando in compagnia
S'ubbriacano ben bene all'osteria... (٢)

كانت هذه العروس المجنونة ، والغليظة أحيانا ، تعامل كل العناصر القديمة بلا احترام ، من مثل السحر ، والافتتان ، وركوب الخيل ، والمطاردة ، والكمين ، والقتال الغريب ، والخان المسحور ، والسجن ، والقتل الشاعرى ؛ وتنتقل من حكاية إلى حكاية ، ومن صورة هزلية إلى أخرى ، دون أن تفكر فى السير المستقيم ، والاتجاه صوب هدف معين أيا كان ، بل لم يكن يشغلها إلا تبيان كم يسهل علينا أن نضحك وأن نضحك ، على ذقون الحمقى والمدعين .

لقد أبعد ممثلو « الكوميديا الفنية » Commedia dell'arte الايطاليون من باريس ، عام ١٦٩٧ ؛ وقد كانوا فى غاية الجرأة ، والجاذبية ، والمرح ؛ فأغلق مسرحهم . ولكن رينيار بقى ، رينيار المحبوب ؛ ولم يكن الحزن من طبع بورجوازى باريس . وكان يكتفى بأبسط العقد ، من استبدال الشخصيات ، والتعرف ، والمفاجآت المتوقعة ؛ وبأكثر الشخصيات استعمالا فى قائمة المسرح ، من مثل المرابين الذين يخنقون أولاد الذوات ، والأرامل الثريات اللاتى يستغلهن الشبان ، والأمهات المتحكمات ، والفتيات العاشقات ، والشبان الطائشين ؛ وكم من خدم ووصيفات ، لاتمام التمثيل ! وسواء كان بمعجزة ، أو لعله بسبب إكثاره ، أو براعته ، أو حميته التى لا تغيض ، أو خبرته بالمواقف والكلمات ، أو مرح طبعه الذى لا يقاوم ، — فقد كان يستمد من هذه المواد القديمة رواية مضحكة تبدو دائما جديدة . هل هناك أسهل من مسرحيته « الرجل النائه » *Distrait* ؟ لياندر هذا ، الذى يفقد حذاءه فى الطريق

(١) إنها لاتغنى إلا لتسعد — ولتسعد أيضا من يصغى إليها — إنها لا تعرف القواعد ، ولا تعيرها أدنى اهتمام .

(٢) ورينو ورولاند معا — يسكران فى الحانة ما استطاعا .

ويتبع طريق بيكاردى على أنه طريق روان ، والذى يضع إصبعه فى بيضة نمبرشت (ألاكوك) ويعضه حتى يتفجر منه الدم ، والذى يخطئ فى حجرته، ويلقى بساعته على الأرض ، والذى يعلن هيامه بالحسناء التى لا يحبها ، وكراهيته للحسناء التى يحبها ، والذى — بعد عشرين حادثا على هذا المنوال — ينسى ليلة زفافه أنه قد تزوج: أهناك شئ معروف أكثر من ذلك ؟ أو مستغل أكثر من ذلك ، أو فى معنى آخر مصطلح عليه أو معتاد ؟ إنها لاتعدو شخصية من شخصيات لابروبير أطيلت على خمسة فصول . ومع ذلك ، تجوز عليك الخدعة ، وتضحك على كل عثرة ، كالأطفال .

هذا المنظر أو حتى تلك المسرحية يمكن أن تكون محزنة ، لكن ليس الحزن العميق الذى نجده عند موليير ، مادام رينيار لا يتعمق أبداً النفسيات . ولكنه لا يجهل ما فى الناس من نقائص ورذائل ؛ لكنه يعرف تماما ما للنقود من قوة وتأثير على مجتمع يوشك على الانحلال ، لكنه لا يتردد فى تصوير كهول محطمين ، محمومين ، مصروعين ، مشلولين ، مسلولين ، مبهورين ، مستسقين ، لم تبق فى فمهم إلا سن واحدة ، سوف تقع عند أول نوبة من السعال — يشتهون فتيات فى ريعان الشباب . فملهاة « الموصى العمومى » ، *Le Légataire Universel* تسودها رائحة المآتم . . . وأى بأس ؟ إننا لا نحس الحزن بل المرح . إن الشخصيات لا تظهر على المسرح إلا لتسلينا لحظة ، ولتلمع لمعة عابرة . إنها سريعة ، خفيفة ، تتراقص ، وتتواثب : لأنها قررت أن تعتقد — مرة وإلى الأبد — أن علاج الشرور كلها ، حتى فى حالة الموت ، حبة من الجنون . وحين تنتهى المسرحية ، وقد أصبح الغيورون والبخلاء موضع استهزاء ، وحين ينتهى أسر الخدم والوصيفات les Crispin et les Lisette (١) بالعفو والتبرئة ، ويتزوج العشاق ، وحين يحيى الممثلون الجمهور ويسدل الستار ، حينئذ لا يحتفظ الشاهد المسرور إلا بذكرى واحدة :

Il faut bien que je rie
De tout ce que je vois tous les jours dans la vie (٢)

---

(١) كرسبان : شخصية فى ملهاة أصلها إيطالى أصبح مثالا للخادم الظريف الخالع العذار — وليزيت : اللقب الشائع للوصيفات فى الملهاة ، حية ماكرة لعوب. [المترجمان]

(٢) لابد من أن أضحك من كل ما أشاهد كل يوم فى الحياة . . .
(الرجل التائه ، الفصل الأول ، المنظر السادس)

مصاحبة جديدة فى نغمة خافتة ، تخالف الأنغام العالية . لم يكن تولاند ولا كولنز من الضاحكين ؛ ولم تكن لتنال من فونتنل إلا بسمة ، خفيفة ، ساخرة ؛ وكان جان لى كلير جاداً ؛ وجوريو محزونا مكروبا . وكان بوسويه فى شيخوخته صارماً ، ويل للضاحكين فلسوف يبكون ؛ وكان فينلون يرى فى الضحك شيئا غير لائق ؛ ولم يعد لويس الرابع عشر يضحك ، فى خريفه ، فى شتائه . ولكن أولئك لم يكونوا يمثلون الجنس البشرى بأسره .

***

فلنكشف الآن كما كان الشيطان الأعرج يفعل ، عن مساكن جديدة . فلندع المازحين ، السكارى ، والأشقياء picaros والمتشردين rogues والنشالين ، أولئك الرفاق الخالي البال ؛ ولندع الضاحكين ؛ ولنلتفت إلى النفوس الحساسة ، التى تعجز عن العيش بلا انفعال ، بلا حزن ، بلا يأس ؛ ولنتجه صوب الذين يعتقدون أن العقل غير إنسانى .

ليس الموضوع أن نعرف ما إذا كان النـاس لم يكفوا أبداً عن البكاء فى هذه الدنيا ، بل هو تحديد الزمن الذى بدأنا نعتقد فيه أننا نستطيع أن نكشف عن دموعنا بلا خجل .

هاك منظراً فى مسرح ؛ بطل بخوذته ، وريشه ، وفخامته ، يشكو لبطل آخر ، رومانى مثله ، حالة قلبه الضعيف :

SERVILIUS.

Mais quand je songe, hélas ! que l'état où je suis
Va bientôt exposer aux plus mortels ennuis
Une jeune beauté, dont la foi, la constance,
Ne peut trop exiger de ma reconnaissance,
Je perds à cet objet toute ma fermeté.
Eh ! pardonne, de grâce, à cette lâcheté,
Qui, me faisant prévoir tant d'affreuses alarmes
Dans ton sein généreux me fait verser des larmes. (١)

(١) سرفليوس : واآسفاه ! عندما أفكر أن حالتى — سوف تجلب أسوأ الشرور — على فتاة جميلة جعلنى إخلاصها ووفاؤها — مدينا لها بشكر ليس له حدود — إنى أفقد لذلك كل جأشى وصمودى فاغفرلى بربك ، هذا الهوان الذى يجعلنى أسكب أدمعى فى قلبك الكريم — لما أستشف فيه من مخاطر مرعبة . . .

دموع ! بطل مدرع يجرؤ على ذرف الدموع ، على المسرح ! إن الآخر يعصف به الغضب أكثر مما يتملكه التأثر :

MANLIUS.

Des larmes ! Ah ! plutôt, par tes vaillantes mains,
Soient noyés dans leur sang ces perfides Romains.
Des larmes ! Jusque-là la douleur te possède ! (١)

إن المشاهدين يتعجبون ، سائلين : بأى سر لا يخالجنا الخجل من الضحك على المسرح بتلك الحرية ، بينما نخجل من البكاء (٢)؟

هاك غرفة بيير بايل ؛ إنه يكتب إلى أخيه يعقوب ؛ لقد ماتت أمهما من قريب . إنه يقبل البكاء فى مثل هذه الحالة من الحزن .

— « إنى أوافق على غزارة دموعك ، ولا يزعجنى أن تشجعنى على أن أذرف منها بفيض . لا ينبغى أن نلقى أذنا صاغية للرواقيين . . . إن الحساسية التى نظهرها أمام ضربات القدر القاسية ، لا تعدم لها أثراً ؛ لذلك ينبغى أن نأسى فى رقة القلب أكثر مما نأسى فى خشونة الطبع . إن الله سيبارك دموعنا وأنيننا . . . »

ثم يتردد بايل قليلا ، ويتراجع . لنا الحق فى البكاء ، لكن ليس لنا الحق فى البكاء على الدوام :

— « ولو أنى قلت لك ذلك ، إلا أنى لا أمتدح الخلق الذى تحدثنى عنه ، عندما تقول بالحرف إن لك طبعا لينا ، وإنك لا تستطيع أن ترى أقل شئ أو تفكر فيه إلا وتبكى فى غزارة عجيبة . إن هذا الضعف لا يليق برجل ، ضعف نكاد نجيزه للنساء . فى كل ظروف الحياة وتقلباتها ، يجب أن يحتفظ كل ما يخص الرجل بصفة من الرجولة . . . »

---

(١) مانليوس : دموع ! آه ! ... أفضل أن أرى أولئك الرومان الخوان — غارقين فى الدماء بيديك الباسلتين — دموع ! أإلى هذا الحد تملكك العذاب ؟
(مانليوس كابتوليوس ، مأساة « لافوس دوبتي » التى مثلها لأول مرة ممثلو الملك يوم السبت ١٨ يناير ١٦٩٨) .
(٢) لابروبير ، الشخصيات ، « عن نتاج الفكر . »

ولكن ترى ألا يكون قد جرح أخاه؟ إنه يتراجع مرة أخرى : آه ! إذا أراد أخوه أن يبكى ، فليبك كيفما شاء !

— « بيد أنى وإن كنت أقدر صحة ألمك البالغ ، إلا أنى لا أوافق على هذا الحنان الكبير الشامل الذى تشعر به : وهكذا مع إدانتى لطبع شفيق إلى هذا الحد ، فانى لا أؤاخذك على هذا الفيض من الدموع التى ذرفتها وسوف تذرفها . يمكننا أن نستسلم إلى تلك المغالاة ، دون أن نفقد قوة الذهن التى يجب أن يمتاز بها جنسنا ، ومادام أكبر الأبطال ، وأكبر القديسين ، قد عرفوا البكاء ، فلا ينبغى أن تعد الدموع ضعفا نسويا . . .(١) »

ضعف نسوى . . . هاهو ذا المنزل البورجوازى الثرى حيث تكتب امرأة ضعيفة رسائل حب وهى تبكى وتنتحب . لقد أحبت فى مقتبل عمرها البارون دى برونتيل الذى خالته أجمل رجل فى الدنيا ، ولما تملكها اليأس لعلمها أنه ليس حراً ، عزمت ذات يوم على الفرار من بيت أبيها ، واتجهت صوب الدير ؛ ولكن أباها لحق بها فى الطريق ، وزوجها رغم أنفها ليعيد إليها صوابها ؛ وأصبحت الآنسة آن دى بلينزانى ، الرئيسة فيراند . وحدث أن رأت الرئيسة البارون مرة أخرى ، وأحبته أشد الحب ، أحبته بجنون . ومن هنا ، تلك الرسائل ، التى تعد من أجمل الرسائل التى دبجها قلم عاشقة ، وكلها مليئة بالاضطراب : سعادة حب يجهله العالم ؛ متعة تزداد قيمة كلما بقيت سراً ؛ حزن منشؤه أن هذا الحب لا يستطيع أن يتفتح ، حراً ، مجيداً ؛ غضب من أجل العراقيل التى تتجمع شيئا فشيئا ؛ نغمات حانية شبه أثمية ، وصيحات عاطفية ، وتقزز للتفكير فى أنها ستعود — بعد مغادرة عشيقها — إلى زوج ينفر منه جسدها ؛ بصيرة الشعور ، « نعم يا عزيزى ، أنت تحبنى ، وأنا أعبدك ... » ؛ فقدان التقدير الذى لا يكفى لمحو الحب : « لقد فقدت عطف أسرتى ، وأحلت عشى إلى جحيم من أجل عشيق لا يستحق إلا حقدى . ولكن يا إلهى ! هنا ذروة تعاستى ، لا أستطيع أن أكرهه ، إنى أحتقره ، إنى أشمئز منه ، ولكنى

(١) سالم ينشر من رسائل بايل ، ج . ل . جيريج . وفان روز بروبك ، عدد يوليو - سبتمبر ١٩٣٢ من « رومانيك - ريفيو » .

أشعر بأنى لست أكرهه . . . » إن هذه المرأة المفطورة على العشق ، فيها بعض الصفات التى ستفخر بها البطلات الرومانتيكيات بعد ذلك الوقت بمائة وأربعين عاما . فهى تقدر أن السعادة سلوة ، أما الحزن فيجعلنا أكثر إحساسا للحب : إنها أتعس امرأة أحبت ؛ لقد وسمها القدر : نظر إليها الحب ، منذ المهد ، كضحية لعذابه . إنها تذرف سيلا من الدموع (١). — منذ ذلك الوقت (٢) !

وكان المجتمع ينحل ، وهذا صحيح ؛ وكانت عدوى الترف تستشرى ، والترف يقتضى النقود ، بكثرة ، وبسرعة : عندئذ أخذ الناس يبحثون عنها فى المضاربة ، وأوراق النصيب ، وشركات الايراد ، ولعب الورق . إن مسرحية *Turcaret* ظهرت فى ١٧٠٩ ؛ ويعتقد توركاريه ذلك الخادم الذى أصبح ملتزما غنياً ، أن كل شئ يشترى بالجنيه ، السلوك المهذب ، والفن ، وقلوب النساء . ولا ريب فى أن لوساج يبديه لنا وقد انتهى إلى الافلاس وأصبح موضع سخرية واستهزاء : إلا أن النقود وإن لم تقدر على كل شئ فهى تفسد كل شئ ؛ وهناك المغزى الخلقى للمسرحية الذى يستخلصه الخادم فرونتان ، فى حديثه مع الوصيفة ليزيت : « إنى معجب بسير الحياة البشرية ؛ إننا ننتف ريش غانية ، والغانية تأكل رجل أعمال ، ورجل الأعمال ينهب غيره ، وهكذا ننتهى إلى أظرف سلسلة من الخداع فى الدنيا . » وفى مسرحيات « دانكورت » ، مرآة ذلك الوقت ، الجميلة الأضلاع ، نجد أكثر الناس اصطناعا للسذاجة ، وأوفرهم فساداً ، وأكثرهم ولعا بالألقاب والمال ، من النساء

وصحيح أيضاً أن الناس دفعوا بالنساء نحو الفلسفة ونحو العلم : لورد

---

(١) قصة حديثة لحب بليز وكليانت ، ١٦٨٩ - رسالات الرئيسة فيراند *La Présidente Ferrand* إلى البارون دى بروتيل de Breteuil طبع أوجين آس ، ١٨٨٠ .

(٢) يتعجب المؤلف لهذه المشاعر الرومانتيكية ، التى تظهر قبل الأوان . والرومانتيكية مذهب ظهر فى مبادئ القرن التاسع عشر ، وهو التحرر من قيود العصر الكلاسيكى . وأول مبشر بها جان جاك روسو ، ومن موجيها شاتوبرياند Chateaubriand ومدام دى ستال . وتمتاز الرومانتيكية على الأخص بالفردية وتفوق الحساسية والخيال على العقل . ومن أعلامها لامارتين Lamartine ، والفريد دى فيني De Vigny ، وفكتور هوجو ، والفريد دى موسيه Musset وجورج صاند وبلزاك . [المترجمان]

هاليفاكس حينا ، وفونتنل حينا آخر . وطالب البعض بتحرير النساء تحريراً تاما ؛ لأن الرجال أساءوا استعمال سلطتهم — عندما وضعوا القوانين — لاستبقائهن تحت حكمهم ؛ وعهدوا إليهن بأشغال تافهة ، ورسخ الشر بفضل العادة ، واستفحل بفضل التربية : ولقد حان الوقت لكى نغير هذه الحال . يجب أن تصبح النساء على قدم المساواة مع الرجال ، فبذلك يقضى المنطق والعقل : يجب أن يتلقين نفس التعليم ، وأن يشغلن نفس الوظائف ، فى القضاء ، والمعارف ، وحتى فى قيادة الجيش ، وحتى الكنيسة . أما بوالو ، الذى لم ينس « النساء العالمات » ، فليس من هذا الرأى ؛ فتراه يتذمر ، ويسخر من الداعرات والغانيات ، والمقامرات ، والعالمات ، والمتكلفات ، والهوائيات ؛ ويذكّر فى لهجة ساخرة بمفاتن الزواج : ولكن ترى بيرو Perrault يسارع إلى الذود عن شرف الجنس اللطيف . ويعلن أن بوالو رجعى الأفكار ؛ فانه يهجو النساء لأنه اقتبس هذا الموضوع من هوراس وجوفينال Juvénal ، وأنه يظن نفسه ملزما بترديد كل ماقاله الأقدمون . بيد أن « المحدثين » ، وقد يفوقونهم سداد رأى ، يعلمون أن أخلاق اليوم تفترق كثيراً عن أخلاق الأمس : لله در النساء ! إن فيلسوفا إيطاليا ، باولو ماتيادوريا يردد ذلك ، مبيناً « أن المرأة ، فى كل الفضائل الكبرى تقريباً ، لا تقل عن الرجل فى شئ . »

كل هذا صحيح . يقرر المشاهدون أن الفتيات يتحررن ، وأنهن ينسين العادات القديمة الطيبة ، وأن سلوكهن فاضح ؛ وأن النساء سفيهات ، شرهات ، متغرضات . ولكن إذا وقع حب كبير ، بما يتبعه من عقبات ، نرى العاطفة تسترد حقوقها فوراً ، وتنفجر ، وتترجم إلى صيحات مؤلمة ، وزفرات موجعة : إن فى ذلك نداءً لعصر قريب ، سوف يريد أن يكون بأكمله ، عاطفة .

***

بأى براعة تتبدى الحساسية — كأنما من وراء حجاب — تلك الحساسية التى يريد البعض استئصال شأفتها من الدنيا ! صدرت عن انجلترا أيضاً إشارة ، وكان مصدرها ممثل ، كولى سيبر : لقد استشف هذا الميل الخفى لزمنه . كفى مسرحيات ماجنة ! كفى نبلاء فاسقين يزهون على

المسرح زهو الطاووس ! كان جيريمى كولبير محقاً ، لقد حان الوقت لكى نرد المسرحيات الانجليزية إلى اللياقة والأخلاق . واتخذت الأخلاق الشعور كرفيق .

فلنفترض زوجا شريراً ، قد هجر زوجته بقسوة ، بحثا عن المغامرة ، وأضاع ماله كله فى النبيذ العتيق والنساء الفتيّات — كما يقول ؛ ثم عاد إلى انجلترا مفلساً ، لكن محتفظاً بسفاهته . ودون أن نرهق خيالنا ، فلنسمّه لوفليس Loveless ولنفترض من جهة أخرى مثال الزوجات أماندا *Amanda* . إنها لم تنقطع عن حب زوجها الشرير ، وتريد أن تستعيده . ترى هل يحسن الالتجاء إلى سواعظ الأخلاق مباشرة ؟ كلا ، قطعا ؛ وإلا هرب من جديد . فمن الأفضل أن تلجأ إلى الشعور ، إلى الندم ؛ إلى بقية من عاطفة ، تستيقظ رويداً رويداً ؛ بل إلى المتعة . وأخيراً ، سيعترف لوفليس بأخطائه ، وسيتكلم مستغفراً : « آه . . . إنك انتشلتنى من خمود الرذيلة العميق . . . دعينى أركع أمامك ، وأشكر تلك التى أخضعتنى بفضيلتها الظافرة . هنا أود أن يكون مقامى ، راكعاً هكذا ، لشدة خجلى ؛ أريد أن أتطهر من جرائمى فى سيل من دموع التوبة . » لقد مر بمدرسة الشعور .

لقد مثلت مسرحية كولى سيبر هذه ، « حيلة الحب الأخيرة » *Love's Last Shift* على المسرح الملكى بلندن فى عام ١٦٩٦ ، ولقيت نجاحا عظيما . ومنذئذ تتابعت كوميديات ذات لونين ، مرحة ، جادة ، بورجوازية ، أخلاقية ، تشوبها رائحة الخلاعة القديمة : ذلك أنك كنت ترى فيها أكثر من شخصية مقتبسة من القائمة القديمة ، وبالتالى ، لم تكف عن عادة الشرب ، أو مغازلة الفتيات ، أو التحدث فى لهجة غير صقيلة ، دون مراعاة للآذان العفيفة . كوميديات حديثة ، بما فيها من بعض المناظر الحية ، الصافية ؛ وقد تستعمل دون وازع ، أقدم الأساليب ، نعنى التنكر ، والتمسخر ، والخطأ فى عنوان الرسائل ، والغلط فى الشخصيات : وترى كولى سيبر يقدم مثلا ، بافتراضه أن لوفليس لا يتعرف زوجته أماندا ؛ ويفسر ذلك بأن سيماء أماندا قد تغير قليلا بفعل الجدرى . كوميديات تبدو فجة ، ثقيلة فى خواتم الفصول وأحيانا فى خواتم المناظر ، لما فيها من بعض الأشعار الصغيرة الأخلاقية ، التى يصعب أن نعدها طبيعية أو جميلة . ولكنها تفصح جميعها عن حالة ضمير واحدة ،

وتقدم جميعا ناحية سيكولوجية واحدة،من أجلها نغضي عن الكثير : فان إصلاحا أخلاقياً لا يمكن أن يتحقق بفعل خارجي ، بالقوة ، والسلطة ، بل لابد من ارتضاء النفس . إذن ينبغي — قبل أن نتوسل بالارادة المجددة ، أن تتأثر النفس ، وأن تنفعل أولا ، ثم تعالج ، بالشعور . فالزوج الذى يستشف اضطراب زوجته ، لن يحصل منها على شئ ، مالم يحرك فى قلبها شعور الأسف والندم . وفى سبيل ذلك ، يتخيل رواية كاملة ، فيلجأ إلى عشيق كاذب ، يستأجره ليدفع بها إلى حافة الخطيئة : وحين تصبح شبه مذنبة ، تحس فظاعة الكذب ، والخيانة ، فترجع إلى أحضان الفضيلة لاشمئزازها من الرذيلة .

وسنصبح أكثر حنانا . إن خدما مسنين ، مخلصين إخلاص الكلاب الأمينة ، شاكرين لأسيادهم ما طوقوا به أعناقهم من أفضال ، سيكشفون فى الأوقات الحرجة عن إخلاص يستحق الاعجاب . وسنترك بعض النساء اللواتى يستعصى إصلاحهن لنصيبهن التعس ؛ ولكن سوادهن سيكن رقيقات ، وديعات ؛ وإذا تشتت منهن القلب ، فسنعرف كيف نعيدهن إلى الطريق المستقيم . وعند الرجال ، لن يعدم الثبات فى حب مخلص جزاءه ، بعد الامتحان. وسنعجب بالوالد الذى يعنى بألا يصيب ابنه أى ألم ، وبالابن الذى لا يقل عنه رقة وعطفا : أحسن الآباء وأحدبهم وأحسن الأبناء وأحناهم : شخصيتان سرهفتا الحس — « كالمست المستحية » — تنكمشان بمجرد اللمس . وسنرى فى نفس المسرحية عذراء ساذجة ، نقية وفاتنة ، تأبى الاعتقاد فى وجود الشر ، مهما قيل لها . وأقل الشخصيات ظرفا ، ستبدو على الأكثر ، فى شئ من خشونة الطبع أو قليل من الغيرة . ولكن ستسكن الغيرة وتستحيل الخشونة إلى رقة ، ويزول سوء التفاهم ، ثم يتعانق الجميع ، بين الدموع .تلك حال « العاشقين المتحفظين » *The conscious lovers* لستيل Steele اللذين يسجلان فى عام ١٧٢٢ انتصار هذا الطراز .

إنشطراً من الأدب يريد أن يصبح « خدمة كريمة فى سبيل الانسانية (١) ».

---

(١) ر. ستيل ، ملهاة ، الزوج الوفى ، ١٧٠٥ . R. Steele, *the tender husband*, 1705 إلى مستر أديسون ، « الشعر ... خدمة كريمة فى سبيل الانسانية . »

***

الأوبرا — أى إهانة موجهة إلى العقل ! تملق العيون والآذان ، استفزاز العقل : إن فى ذلك لتحرشا . غناء كل شئ من البداية إلى النهاية ، لا فى إعلان العشق فحسب ، بل فى الخطب والرسائل ، والأوامر ، والشتائم ، والمسارة ، والأسرار : فأى سخف ! « هل نستطيع أن نتخيل أن سيداً ينادى خادمه ، أو يكلفه بمهمة ، وهو يغنى ؟ أو أن صديقاً يسر فى أذن صديقه وهو يغنى ؟ أو تدور المناقشة فى مجلس بالغناء ؟ أو نغنى الأوامر التى نصدرها ؟ أو يدور القتل فى مذبحة بالسيف والرمح على أنغام الموسيقا . . . ؟ » — « إذا أردت أن تعرف ماهى الأوبرا ، فاعلم أنها عمل غريب من الشعر والموسيقا ، حيث الشاعر والموسيقار ، وقد ضاق كلاهما بالآخر ، يبذلان كل جهدهما فى إتيان تأليف ردئ . . . »

أضف إلى ذلك ، المكلف بالزخرفة ، ذلك المجرم الآخر . ملأ المسرح بأعاجيب من الورق المقوى ، لابدال الفائدة السيكولوجية ، بمؤثرات خارجية من المفاجأة والدهشة ، واختراع آلات معقدة أبلغ التعقيد ، من عجلات تطير ، وآلهة تصعد إلى السماء ، ووحوش ناطقة : أى مخالفة للمنطق ! وجماع القول ، أننا إذا استمعنا إلى ذوى العقول السديدة ، أولئك الذين يحبون الشئ الحقيقى ، المحتمل ، المنطقى ، المنتظم ، مثل سانت أفريموند وبوالو ولا برويير ، وأديسون وستيل ، وجرافينا وجراسمبينى ومافى وموراتورى ، لوجدنا : أن الأوبرا تخالف العقل والصواب ، وأنها تستأهل كل احتقار . ذلك أن «حماقة حافلة بالموسيقا ، والرقص والآلات والزخارف لحماقة رائعة ، ولكنها حماقة على كل حال . . .(١) »

بالضبط : كانت الأوبرا مخالفة للعقل ، وكانت تروق الناس ! ذلك هو الواقع الذى لم يستطع أن ينكره أحد ؛ الجديد الذى أثار غيظ الذائدين عن العقل السليم . انتصرت الأوبرا فى كل مكان ؛ غزت فلورنسة ، والبندقية ، وروما ، ونابولى ، وكل مدينة فى إيطاليا . واستقرت فى المراكز الموسيقية الكبرى فى ألمانيا ، درسدن وليبزج . وكانت فتنة فيينا ، التى أصبحت وطنا ثانيا لها .

---

(١) سانت أفريموند ، رسالة عن الأوبرا .

فما من أمير أو دوق كبير لم يرد أن يكون له مسرح خاص ، ومزخرفين ، ومؤلفين ، وأحسن قادة الأجواق Maestro ، وأحسن أساتذة الرقص ، وأحسن المغنيات Prima donna . ومجدت باريس لولى وكينو . واحتجزت لندن هاندل . وتأخرت مدريد قليلا ؛ وقد حكت مدام « دولنوا » d'Aulnoy ، وهى تبتسم ، فى « قصة السفر إلى اسبانيا » فى عام ١٦٩١ : « لم أر قط أدوات فى مثل هذه الحقارة ؛ فقد كانت الآلهة تنزل بخيلها بوساطة دعامة خشبية مشدودة من طرف إلى طرف ؛ والشمس تسطع بوساطة اثنى عشر فانوسا من الورق المزيت داخل كل منها مصباح ؛ وعندما كانت « ألسين » تقوم بأعمالها السحرية ، وتستحضر الشياطين ، كانت الشياطين تخرج من الجحيم فى يسر ، على درج . . . » هذه الحالة ستتغير : ففى عام ١٧٠٣ ، ستستقر شركة إيطالية فى مدريد .

ما منشأ هذا الولع ؟ — إن الناس فى حاجة أبدية إلى عامل مؤثر ؛ والمأساة التى أصبحت منذ نهاية القرن محض تقليد وآلية ، لم تعد تهيئه . إذن فستهيئه الموسيقا . إن حاجة سيكولوجية ملحة ، تنتهى إلى تحويل فى الفن ، تنتهى إلى شكل جديد .

تأليف واسع مزخرف ، تشارك فيه كل الفنون ؛ عيد من الألغام ، والألوان ، الحركات الايقاعية ، افتتان الآذان والعيون ؛ انفعال ذو صفة نوعية جديدة ، ادمنا لا نستطيع أن نحلله ، مادامت فتنته حسية ، مادام الجسد نفسه يبدو كأنما يذوب ويلين بتأثيره ؛ متعة تجمع بين السحر والفتنة ؛ عميقة لا يمكن شرحها ، لذة فى صميم القلب : تلك هى الأوبرا . ولو أن الناس انتقدوها مائة وألف مرة ، لذهب نقدهم أدراج الرياح . لقد أخطأ الرقباء ؛ لم يدركوا أن رغبة قد استيقظت فى النفوس ، ولا بد من إشباعها : كان الجمهور ينشد ما هو عجيب ، مؤثر ، عاطفى . لم تعد النفوس تريد أن تقتنع ، بل تريد أن « تضطرب »(١) هنا كان التغير .

ولنسع إلى زيادة التخصيص : إن ماقابلته أوروبا بحماسة ، كان الأوبرا الايطالية . فايطاليا ، التى قدمت مثالا لها ، هى النبع الذى لا ينضب ، والذى تنبثق منه الأمواج الرنانة ؛ إنها تمد أوروبا بأسرها بالموسيقا والموسيقيين معاً ؛

---

(١) مدام دى سيفينيه ، رسالة فى ٨ يناير ١٦٧٤ .

إنها النغم نفسه . إن مآسيها الموسيقية (ميلودراما) تغزو كل الشعوب المجاورة . وباريس تريد الكفاح ولكن الموهبة التى تقدمها ضد إيطاليا ، إيطالية ؛ وعلى كل حال ، فان نصف فرنسا هو الذى يقاوم ، أما النصف الآخر فقد تم غزوه . وتظل هامبورج طويلا ، مخلصة للموسيقا الألمانية ، ولكن ينتهى بها الأمر إلى الاستسلام . إن عالم الأوبرا ليس إلا مستعمرة إيطالية .

وبما ستشأ هذه المعاملة اللطيفة بدورها ، وهذه السيادة ؟ — إن مؤلفى الأوبرا الايطاليين ، يريدون هم أيضاً أن يظلوا مخلصين للعقل السامى ؛ فانهم ينقذون أنفسهم ، باطاعته ، من احتقار النقاد ؛ وبذا يبذون كبار مؤلفى التراجيديا مقاماً . إن مجهود بنيديتو مارسيلو ، وأبوستولوزينو — مورد جلالة الامبراطور — والذى يريد أن يكون بمثابة بيير كورنيل فى الأوبرا ، يهدف إلى تنظيم قصة الأوبرا ، وأن يحذف منها مالا يتفق مع السياق ، وأن يحصرها ، وأن يصفيها ، وأخيراً أن يقربها من التراجيديا ؛ وسينتهى ميتاستاز فيما بعد ، إلى تبرير الميلودراما باسم « فن الشعر » الأرسطوطاليسى .

لكن بلا جدوى . فلم يستطع مؤلفو الأوبرا المتحمسين أولئك ، وقد كانوا ضحايا الوهم الأدبى السائد حولهم ، والذى يرفع الملحمة والمأساة إلى أعلى درجات إنتاج الذهن الانسانى — لم يستطيعوا أن يفهموا أن الأدب لم يعد إلا خادما متواضعا ، تفرض الموسيقا عليه قوانينها . فالموسيقا تتطلب هنا لحنا ، وهناك ثنائيا ، وهنالك جوقة مرتلين ؛ تريد عدداً معيناً من الشطرات ، على إيقاع معين ، تخصص للصوت المرتفع (تينور) أو للصوت المنخفض (باس) ؛ كانت تتحكم فى كل شئ ، حتى اللغة ، التى لا ينبغى أن تقدم إلا اللفظ السهل ، والمنسجم . وهى لا تطلب من الكاتب إلا المرونة والبراعة : فلم تترك له إلا فن المجاراة ، فن طاعة الملحن ، وقائد الجوقة ، والمغنية الأولى (البريمادونا) . ولما كانت اللغة الايطالية ، أغنى وأحسن وقعا ، وأكثر انسجاما ، وأوفر تنوعاً من كل لغات أوروبا الأخرى ؛ فقد استعادت هنا المكانة التى كانت قد فقدتها ، عندما كان الأمر يتعلق بالتعبير عن الأفكار .

الموسيقا الايطالية ، أى فتنة ! أى تدفق هارب من القيود ! أى غنى دافئ ! أى غزارة ! أى سهولة منتصرة ! كانت بما هى عليه من كرم وغنى لا يغيض — تقدم لجمهور لا غنى له عنها ماليس فى الموسيقا الفرنسية ، ولا فى

أى موسيقا فى أى بلد : الحمية والحيوية والشخصية المميزة . نعم ، الشخصية ، البارزة أبداً ، سواء فى حيويتها أو فى رقتها . لم تنشد توافقا موسيقيا رقيقا ، متساويا ، موحداً ، لا يعمل إلا بالتسلسل ، حذراً ، منطقياً : بل كانت تتجاسر وتخاطر ، وبجسارتها هذه كانت تشمل النفس . إنهم المعاصرون أيضا الذين يقررون هذا ، بل حتى الفرنسيون . « إن الموسيقيين الفرنسيين ليعتقدون أنهم قد ضاعوا لو خالفوا القواعد أدنى مخالفة ؛ إنهم يتملقون ، يدغدغون ، يحترسون الأذن ، ومع ذلك يرتعدون مخافة ألا ينجحوا بعد ما أدوا ما عليهم بكل ما يمكن من انتظام ؛ أما الايطاليون الذين يفوقونهم جسارة ، فيغيرون النغم والمقام فجأة ، ويأتون بوقفات مزدوجة ومضاعفة لسبعة مقاييس (سازوره) أو ثمانية على نغمات نعتقد أنها لا تستطيع أن تتحمل أقل رجفة ؛ إنهم يطيلون النغمة إطالة فذة ، حتى إن غير المعتادين عليها ، لا يستطيعون أن يملكوا أنفسهم من الغيظ فى بدء الأمر من هذه الجرأة التى يعتقدون فى النهاية أنهم لن يوفوها حقها من الاعجاب . . . » وجماع القول ، « إنهم يلقون الذعر بقدر ما يلقون الدهش فى ذهن المستمع ، الذى يظن أن « الكونشرتو » كله سوف يقع فى نشاز سريع ، وبذا يستثيرون اهتمامه بالخراب الذى يبدو كأنما يهدد الموسيقا كلها ، ثم سرعان مايطمئنونه بزلات منتظمة ، لدرجة أن كل مستمع يدهش لرؤية التوافق كأنما يبعث فى نفس هذا النشاز ، ويستمد القسط الأكبر من جماله من ذلك الشذوذ الذى كان يبدو أنه يعمل على دماره . . . (١) »

متعة تفيئها الجرأة ، متعة نتوصل إليها على الأقل بتوهمنا أننا نخرق القيود المقدسة ، متعة تهم كياننا الجسدى ، حيث تختلج أعصابنا اختلاج الكمان تحت القوس : تلك هى المتعة التى قدمها لنا كثير من الملحنين الايطاليين — الذين حتى أسماؤهم كانت رنانة — والذين « فتنوا أوروبا بأسرها بانتاجهم الرائع » ، وعندما كان تلامذة سكارلاتى — أشهر أولئك الملحنين — يسألون أستاذهم عن سبب هذا التفضيل أو ذاك أو عن سبب هذه النصيحة أو تلك ، لم يكن لديه إلا جواب واحد : لأن الاحساس شئ جميل Perchè fa buon sentire .

---

(١) راجنيه Raguenet ، موازنة بين الايطاليين والفرنسيين فيما يتعلق بالموسيقا والأوبرا ، ١٧٠٢ .

الفصل الرابع

العناصر القومية والشعبية والغرزية

لقد حاولنا أن نرى كيف تعمل بعض القوات ، التى تعارض ، بكيانها نفسه ، فى ألا تكون أوروبا إلا نقداً ، وتحليلا ، إلا منطقا وعقلا : استعداد للمستقبل ؛ استعداد غامض للانتقام — الذى لم يحن وقته بعد — للحساسية والخيال . لقد نظرنا إلى هذه القوات ، كما هى عليه ، قابلين ، مسجلين مظاهر هذه الحياة الملموسة ، فى تنوعها المبهم . هل يمكن الآن أن نشرف عليها ، وأن نميز ، من وجهة نظر أعلى ، بعض المبادئ التى تحب عناصر المقاومة هذه أن تتجمع حولها ؟

***

شعور الفوارق القومية : من يستطيع أن يستأصله ؟ إنه يدخل فى الموضوع فيما لا تقبل أى نقص ؛ إنه يصدر عن أسباب يعرفها العقل ، وعن أسباب أخرى لا يعرفها العقل .

طريقة واحدة فى التفكير ، وبالتالى طريقة واحدة فى التحرير ، تسعى لكى تفرض نفسها على كل البلاد : النظام ، الدقة ، الحكمة المنظمة ، الجمال المتين الذى يكتسب بالصبر الطويل والجهد المكين : هذه حقيقة أولى . لكن أليست الحقيقة الثانية أن كل بلد كان يفسر على طريقته ، هذا المبدأ العام ، وبذا تظهر فوارق محسوسة ، بل قل اختلافات ، فى هذه الوحدة المرغوبة ؟ فمثلا : قبلت انجلترا الكلاسيكية ، من جهة تحت تأثير فرنسا ، ومن جهة أخرى لأنها كانت تروم إصلاحا داخلياً ينظم قوتها . بيد أن هذا لم يكن أبداً

إلا كلاسيكية بريطانية ؛ كلاسيكية منفصلة ؛ كلاسيكية اصطلاحية (١). ولنضرب فى الحال مثلا بينا . يعد سويفت من الكلاسيكيين ؛ والواقع أنه شارك فى ضبط النثر الانجليزى إلى حد كبير ؛ وهو يشرح فى المدارس ، ولاريب فى أنه سيشرح فيها على الدوام ؛ إنه أوتى تلك المتانة فى الملكة ، تلك العبقرية التى لا تنكر والتى تجعلنا لا نتردد فى عده من بين أكبر كتاب شعبه ؛ ومع ذلك فكم يبدو كلاسيكياً غريباً فى نظر الفرنسى ، اليوم ؛ ومن باب أولى فى نظر الفرنسى الذى كان يقسم ببوالو ! فلنتصفح « قصة البرميل » ؛ ولنحاول أن نضع أنفسنا محل قارئ من القارة ، بما هو عليه من حالة ذهنية فى عام ١٧٠٤ ؛ ولنتخيل دهشته . فأولا ، أى اختلال ! هذا الرجل لا يعرف أصول التأليف ؛ إنه يتبع الفكرة الأولى التى تمر بذهنه ، ويحيد عنها ، ثم يحيد : كما لو كان يجهل تلك الوسيلة الهامة لفن التحرير التى تسمى التسلسل . إنه لا يصغى إلا لهواه ؛ واستهلالاته أطول من عروضه وبياناته ؛ وليس لديه أى احترام للمنطق القطعى : وذلك يجعله يبدو كما لو كان يسخر منا . « بعدما ألقيت بنفسى فى تلك الانحرافات الواسعة ، أعود إلى الطريق معتزما تتبع موضوعى خطوة خطوة حتى نهاية رحلتى ، سالم يعرض لذهنى مشهد ظريف... » ماذا تقول فى مؤلف يستطرد فى مدح استطراد ؟ وأى صور خارقة للعادة ؟ أى شذوذ ! أى جنون فى الخيال ! « إن الحكمة « ثعلب » ، كثيراً ما نطارده بلا جدوى ، إذا لم نجبره على الخروج من جحره ؛ الحكمة « قطعة من الجبن » تزداد حلاوتها كلما كانت قشرتها سميكة ، متينة ، مقززة ؛ الحكمة « شوكلاتة » تزداد لذتها كلما اقتربنا من عمقها . الحكمة « دجاجة » لابد من أن نحتمل صوتها المزعج لأنه يتبعه بيضة ؛ الحكمة تشبه « جوزة » ، إذا أنت لم تحسن اختيارها كلفتك سنا ، ولا تأخذ منها إلا دودة . . . »

ثم ما هذا الهوس فى مهاجمة كل شئ وتدمير كل شئ ؟ إنه يهاجم الكاثوليك أولا ، ثم اللوثريين ، وأتباع كالفين ، والمتحمسين من كل نوع ؛ إننا لانضمن أبداً ، أنه بعد ملاطفته لنا ، لا يعضنا ؛ إنه يهتاج ، ويستولى عليه الغضب ،

---

(١) أنظر فى هذا الصدد الملاحظات النفاذة للويس كازاميان فى « تاريخ الأدب الانجليزى » بقلم ا. لوجوى ، ل. كازاميان ، ١٩٢٤ ص ٦٩٤ .

ويشتم ويسب : إنه أرستوفان(١) مجنون . وما هذه الاستعارات الدائمة ؟ ! وتلك السخرية ؟ ! إنها لا تنتهى . وهذه الدعابة القاسية ! « لقد رأيت فى الأسبوع الماضى جسد امرأة مسلوخة الجلد ؛ ولا يمكنك أن تتصور كم كان هذا النوع من العرى فى غير صالحها . . . » .

كم من انجليزى ، وقد اعترف بقيمة القواعد الكلاسيكية ، بل حاول أن يجاريها ، استشعر فى صميم قلبه أسفا على الحرية المفقودة ! كم منهم من فكر أن أرسطو ومن بعده هوراس ، كان فيهما الكفاية ، وأنه لم تكن هناك حاجة إلى التزام الصراحة والصلابة الفرنسية ! « كأننا لكى نحصل على عسل شهى ، قصصنا أجنحة النحل ، وأجبرناها على التزام خليتها ، أو على عدم الابتعاد عنها . . . النحل تريد أن تنطلق فى الريف ، كما تنطلق فى البساتين ، لكى تختار بنفسها الزهور التى تروقها . . . (٢) »

و يزداد الاختلاف بروزاً ، ويصبح عنيداً بل شديداً ، حين لا يتعلق الأمر بالأدب بل بالأخلاق ؛ أو بمعنى آخر حين يتعلق الأمر بالدفاع عن ملاذ آمن وأعمق ، عن عادات متأصلة ، عن كيان نوعى خاص . عندما نطالع قصص أو كوميديات زمن كان يقبل ، على كل حال ، و إلى حد ما ، نموذج المؤانسة الفرنسية ، فاننا ندهش لشدة رد الفعل . إن فرنسا تمثل فيها كوقحة ، قد خلفت للندن أساتذة الرقص ، وخدمها الفاسدين ، ووصيفاتها الفاسقات ، وتجار البدعة ، ونساءها المغامرات ، ونبلاءها المزهوين الذين يستعرضون أساليبهم الجميلة بحماقة ، والذين ليسوا إلا جبناء خداعين . إن الانجليز يعرضون مقابل هذا ، الانجليزى الفاضل ؛ البسيط ، الصارم ؛ وهذه الصراحة نفسها تعرض كفضيلة . من الأفضل أن يحتفظ المرء بصراحة كلامه ، وخشونة سلوكه وقوته البكر ، بدلا من أن يستسلم للفساد تحت تأثير قوة أجنبية ، تروم أن تجعل منه رجلا آليا ، عديم الرأى ، منافقا ، « جميلا » . هكذا يظهر الفرنسيون والفرنسيات فى كثير من المسرحيات ، فى دور المنفّرين : أشخاص سخفاء ،

---

(١) الشاعر الهزلى اليونانى الشهير ، وقد صار فى الأدب مثالا للكاتب الذى يهاجم بشدة ، ويسخر من نقائص معاصريه . [المترجمان]

(٢) وليم تمبل ، عن الشعر ، فى « متنوعات » ، ١٦٩٢ - ترجمة فرنسية ، أوترخت ، ١٦٩٣ ، ١٦٩٤ . أمستردام ، ١٧٠٨ .

مهمتهم أولا إثارة مرح الجمهور، ثم تبيان قيمة المزايا ، المزايا الانجليزية المتينة .

وتشكو إيطاليا من عبوديتها لفرنسا ؛ والواقع أنها أصبحت أمة لها ، إلى حد ما . ولكن هنا أيضاً ، فلنحذر التوكيدات المطلقة . فلا يقتصر الأمر على أن بعض شعرائها يحتفظون بفكرة الوحدة الرومانية قائمة حية ، فكرة أن شعب « الغال » ليس على كل حال إلا طارئا متأخراً ، والأمل فى عودة عهد يسترد فيه السلطان الحقيقى حقوقه فحسب ؛ بل سادمنا قد ذكرنا الكلاسيكية ، فان علماء إيطاليا يطالبون بحقوق كلاسيكية إيطالية ، سابقة فى تاريخها على المذاهب الفرنسية ، هى وحدها الشرعية ، الصحيحة ، النقية . إنهم يواصلون «النهضة» بعناد ، نهضتهم هم : من يستطيع أن ينكر فضلهم فيها ؟ بينما يسعى الشعراء إلى تقليد كورنيل وراسين ، معلنين عزمهم صراحة على النجاح أكثر مما نجحا، نراهم يرددون أنهم يرغبون فى البقاء مخلصين لروح ، ولنموذج التراجيدية الاغريقية : الوحيدة التى يحسب لها حساب ، والتى آلت إليهم ملكيتها بحق الاكتشاف والاستثمار الأول . وبعد ، فماذا فعلت فرنسا ؟ لقد شوهت ، وأفسدت تلك النماذج النبيلة . لقد خنثت التراجيديا العتيقة ، جعلتها أنيقة ، وأعطت للتعبير عن الحب مكانة زائدة عن الحد . إن الأستاذ العظيم لا يزال هو سوفوكليس : إليه ينبغى أن نعود .

***

وبدأت الشعوب تتحارب أيضاً ، لاسترداد حق الأسبقية فى الزمن . وعندئذ حاولت جميعها النزول إلى أعماق ماضيها ، لاستحضار وثائق العراقة . كلها تملك أقدم لغة ، أقدم شعر ، أقدم نثر ، أقدم حضارة . وأخذ كل شعب يؤكد فخوراً ، أن جيرانه ليسوا إلا مدعين ، محدثى نعمة .

ولم يبذل أى بلد جهداً شجاعاً قدر ما بذلت ألمانيا فى هذا السبيل . لم تكن إلا ترايا ، كانت مسحوقة ، ذليلة . كانت تعانى كل أنواع النفوذ ، وليس لها أى نفوذ ، ولذا لم تعد تبدو قوة معنوية .

ولكنها دافعت عن حيويتها الغامضة ؛ ولتوطيد كيانها ، كانت تجادل فى كل الجبهات . الوحدة ؟ سوف تستعيدها بسهولة باصلاح داخلى ، كما قال بوفندورف ، كما قال ليبنتز — القانون ؟ ألم يكن هناك قانون جرمانى أقدم

وأسمى من القانون الرومانى ، ومن القانون الاكليركى ؟ القانون الرومانى، القانون الاكليركى ، ذلك كل ما نعلّمه فى الجامعات ؛ أى خطأ كبير ؛ لقد حان الوقت لكى نرد إلى القانون الأهلى القومى مكانته — اللغة ؟ لكن اللغة الألمانية كانت فى قدم وفى جمال اللاتينية ، واليونانية ، وأية لغة كانت : إن اللغة الألمانية قديمة قدم الدنيا . — الأدب ؟ إن الأدب الألمانى لم يكن يقل عن أى أدب آخر . ذلك ما أثبته فى عام ١٦٨٢ ، العالم مورهوفيوس . كم بذل من جهد ، كم جمع من براهين ! كم كنت تشعر ، فى كل صفحة من صفحات كتابه الدسم ، الضخم ، بحب الوطن الألمانى ! كان يقول إن ألمانيا كان لها شعراء فى ذروة المجد ، نسيناهم ظلما ، مثل هانزتزاخ ، وشعراء أقدم منه ، يطالب بهم أولاوس رودنك لاسكندناوة بدون وجه حق . وكان لفرط حماسته ، يستدل استدلالا غريباً : كان لألمانيا شعراء لم يبق لهم أى أثر ، ولكن هذا لا يعنى أنهم لم يكن لهم وجود : بل على النقيض ، لابد من أنه كان لهم وجود ، مادام الشعر فى كل الشعوب هو أول صورة للأدب ؛ وبالتالى فان لهم وجوداً ، سواء جهلناهم أو لم نقف على وجودهم . . .

إن هذه اللغة الألمانية التى تملك قوة اللغة الاغريقية ، وعظمة اللغة الرومانية ، وجمال اللغة الفرنسية ، وفتنة الايطالية ، وغنى الانجليزية ، ورفعة الفلمنكية ؛ إن هذه اللغة ستعطى — كما يرجو محاموها المتحمسون — روائع أدبية سوف تجبر أوروبا الغيرى على الاعتراف بمزيتها . أى صيحة انتصار ! حين ظهر فى عام ١٦٨٩ « أرمنيوس وتوزنلدا » تأليف كاسبرز فون لوهنشين . أخيراً ظهر مؤلف عظيم ، وفىّ للوطن *patria amantissimus* ، قد بحث ووجد موضوعا جديراً بالشعب الجرمانى ؛ إنه مجّد ذلك البطل أرمنيوس الذى قاوم روما ، لا فى بدايتها الضعيفة ، بل إبان عنفوان قوتها ؛ إنه يرد لألمانيا إكليل الغار . صيحات الغبطة ، ودوى النصر . . .

نداء الحنين Sehnsucht ، أى صفة للنفسية الألمانية الأبدية أشهر منه ؟ إنه لا يفتقد فى زمن تزمع فيه أنوار المعرفة أن تبدد كل ظلمات النفس ، وأن تضئ حتى ما وراء الشعور . كان كزيستيان وايز ، الشاعر ، عالم التربية ، الذى توخى فى كل تأليفه البحث المؤثر عما هو بسيط ، وطبيعى — يقدم كل سنة مسرحيات تمثل فى المدرسة التى يديرها : ومن هنا ، متعة الطلاب الذين

أصبحوا ممثلين ؛ وزهو الآباء . وقد ظهر عذاب نفس غير قانعة ، فى إحدى هذه المسرحيات « النفس المعذبة » *Die unvergnügte Seele* ، التى مثلت فى عام ١٦٨٨ . إن فرتيمنوس ، الكريم المحتد ، الطيب ، الذى كان المنطق يقتضى أن يكون سعيداً فى الحياة ، كان تعساً شقياً : يشعر بأنه غير قادر على التمتع بالمال الذى يملكه ، ولا يستطيع أن يقول ماذا ينقصه . فيحاول أن يملأ فراغ نفسه : بالنساء ؛ بالصحبة المرحة من الندماء ؛ بالألقاب ؛ بمعاشرة كبار الفنانين : لكن كل ذلك لم يجده ؛ فيقع فريسة اليأس ، يوشك أن يموت ؛ ألا راحة إذن إلا فى الموت ؟ — وعند هذه النقطة ، تنقلب المسرحية إلى موعظة أخلاقية ، فتفقد فائدتها السيكولوجية . ويمر فلاحان ، « القانع والمطمئن » Contento et Quiete ؛ وقد عرفا صروف الدهر ، التى كانت كبيرة ، ولكن ذلك لم يقلل من تذوقهما للحياة ، إذ لم يطلبا منها إلا ما كان فى وسعها أن تعطيه ؛ فيعطيان درساً لفرتيمنوس ، الذى يصغى إليهما ، ويتوب .

إن النفس غير القانعة لا زالت خجولا ، متواضعة ؛ تعوزها الكبرياء ، فهى لا تعد نفسها ذات امتياز بل تعتقد أنها قابلة للشفاء . ولكنا نعلم أن فرتمنوس سيكون له خلفاء ، سيذهبون فى ضجرهم إلى أقصى درجاته ، وسيستشهدون بالدنيا وبالله ذاته على تعاستهم ، وأن « القانع » و «المطمئن » لن يسعفاهم عندما يعتزمون مفارقة هذه الدنيا التى لا تليق بهم .

لم يدر بخلد نقاد ذلك الوقت ، الذين أعجبوا « بأرمنيوس وتوزمنيلدا » ، أو بأشعار كرستيان ويز العديدة — أن ألمانيا كانت قد أنتجت رواية من أروع الروايات ، ترجم فيها لأول مرة عن نفس جماعية : الرجل البرئ ، *le Simplicissimus* لجريملسهوزن . لعلها تشبه روايات الأشقياء ، بالمغامرات العديدة التى يخوضها البطل : لكن فيها لذة محلية عميقة كل العمق ، حتى إنها تحدت المترجمين ، ولا زالت تتحداهم إلى الآن فى بعض البلاد كفرنسا . موضوعها ذكريات حرب الثلاثين ، إتلاف الحصاد ، نهب القرى ، التنكيل بالفلاحين ، النار فى كل مكان ، الدماء فى كل مكان . موضوعها العقل البرئ السليم ، الملقى به فى وسط مدينة فاسدة ، تغريه وتغويه ، ولكنه ينتهى مع ذلك بالغلبة عليها . موضوعها الايمان ، الذى يخترق الأرض كأنه غابة من التماثيل الرمزية ، الذى يعى أنه يعيش وسط وفرة من الأوهام الوقتية ، تواقاً

على الدوام إلى الحقائق الأبدية ؛ موضوعها المسيحى الذى يكسب السماء بمشقة ، بمروره بألف امتحان ، بالجهل ، بالخطيئة ، والتوبة ، والأمل الذى يسبق الغبطة الأبدية : هذه الموضوعات تنمو ، وتتعانق ، وتذوب وتستعيد نغمتها الأصيلة ، وتتسلسل فى تدفق ونضرة ليس لها مثيل ، مترجمة بفروسية شعب يعتقد جيرانه أن موته وشيك ، بينما يظهر ، على النقيض ، إرادة لاتلين فى قوة أصلية .

ولم يكن الناس قد اخترعوا ، عندئذ ، نظرية تفوق جنس على جنس آخر . ولم يكونوا قد حللوا بعد ، مضمون هذه الكلمة : الوطن . بل حتى لم يكونوا قد كونوا فكرة واضحة عما يمكن أن يكون الشعب . ولم يكونوا قد أضافوا بعد ، إلى المشاعر التى يولدها فى النفوس نداء الأرض وقباب الأجراس ، عمل العقل الذى يفسرها ويبررها . ولكن هذه المشاعر كانت حية فى النفوس ؛ وبمجرد ما كان إيطالى من إيطاليا الممزقة ، أو ألمانى من ألمانيا المفرقة ، أو أو بولندى من بولندة التى تحارب نفسها بنفسها ، أو إسبانى من إسبانيا الغافية ، يعتقد أن أحداً قد مس مزية بلده أو حتى مجده الخارجى ، كان يبتدئ الاحتجاج والنزاع ؛ كان العقل الشامل المسوى يفقد حقوقه أمام الخصائص الأهلية .

***

وكنت تسمع أحياناً أغنية ، لا هى قصيدة مؤلفة بدراية ، ولا هى بغزلية ولا هجائية ، بل أغنية شبه بربرية : تذكر أن أحد ملوك اسكندناوة فى القرون الوسطى — رينير لادبروج — وقد نهشته أفعى نهشة مميتة ، ترنم بأشعار باللغة الجرمانية القديمة ، قبيل سريان السم إلى قلبه (١) ؛ وكانت هذه الأشعار تستطيع ، بما فيها من غرابة ، أن تدهش أو تفتن معاصرى وليم أورانج ولويس الرابع عشر . وكانت هناك أيضاً أغان شعبية ترد من أقصى الأصقاع ، من بلاد أولئك السكان الذين لا شبيه لهم ، سكان القطب ، اللابلانديين . أغنية صحراء الجليد :

---

(١) وليم تمبل مقال عن « الفضيلة الباسلة » فى « المتنوعات » ، القسم الثانى ، لندن ١٦٩٠ ، ص ٢٣٤ — ٢٣٥ W. Temple, *Essay upon Heroic Virtue* .

O soleil levant, dont le joyeux rayon
Invite ma beauté aux plaisirs champêtres,
Dissipe la brume, éclaircis le ciel,
Et amène devant moi ma chère Orra.

Ah! si j'étais sûr de la revoir, ma bien-aimée,
Je grimperais jusqu'à la plus haute branche de ce sapin;
Là-haut, dans cet air qui doucement frissonne,
Et tout à l'entour, je regarderais sans trêve . . . (١)

أو أغنية الرنة :

Hâte-toi, mon renne, et accomplissons d'un pas agile
Notre voyage d'amour à travers cette lande désolée.
Hâte-toi, mon renne, tu es encore, encore trop lent,
Un amour impétueux exige la vitesse de l'éclair . . . (٢)

ولم يكن هذا شيئا مذكوراً ، وسط الأشعار العديدة المنظومة وفقا لأحسن القواعد ؛ ولقد كانت تقل عن ذلك ، لو لم يدر بخلد أديسون أن يهتم بهذه الأشعار الفجة ، وأن يعترف باعجابه بها . أنعم بأغنية Chevy Chace القديمة ، وبالقصيدة الرقيقة « طفلان فى الغابة » : لقد كانتا بريئتين وجميلتين ؛ وكان يسره أن يسمع ، وهو يخترق انجلترا ، تلك الأغانى التى يتوارثها الابن عن الأب ، والتى تعد فتنة البسطاء (٣). صحيح أن أديسون يدخل هوميروس وفرجيل ، تبريراً لذوقه ، ليبين أن فى تلك الأشعار ما فى الأوديسا والانايد من مزايا . ولكنه لحسن الحظ ، لم يصر على هذا الاثبات العلمى ، بل عاد إلى مدح الطبيعى ، الفطرى ، التعبير الساذج للفلاح يعود من حرثه ، مردداً أغنية — تعبير الروح الشعبية . « هذه الأغنية هى صورة بسيطة للطبيعة ،

---

(١) أيتها الشمس المشرقة التى تدعو أشعتها المرحة — حسنائى إلى المتع البرية — اقشعى الضباب ، وأضيئى السماء — وإلى بالعزيزة أورا .
آه ... لو كنت واثقا برؤية حبيبتى مرة أخرى — لتسلقت أعلى غصن لشجرة الصنوبر هذه — عاليا هنالك ، حيث يخفق النسيم الرقيق — وتطلعت فيما حولى على الدوام ...

(٢) أسرعى يا رنتى ، ولتتم بخطوة سريعة — رحلة غرامنا خلال هذه البيداء الموحشة — أسرعى يا رنتى ، إنك لازلت شديدة البطء — إن الحب الجارف يتطلب سرعة البرق ... (سبكتاتور رقم ٣٦٦ ، ٤٠٦) .

(٣) سبكتاتور ، رقم ٧٠ ، ٧٤ ، ٨٥ .

مجردة عن كل عواسل الفن وزخرفه . . . ؛ وهى لا تروقنا إلا لعين هـذا السبب : إنها صورة من الطبيعة . . . »

وفى قطب آخر للحياة ، كانت تسود أيضاً ، أو تسرى على الأقل ، فكرة أن السلطة الشعبية هى وحدها الشرعية ، وأن السلطة الملكية لا تقوم إلا بتفويض منها . وحتى فى مملكة فرنسا ، كان هناك قوم يذكّرون بأن شعوب « الفرنجة » Les Francs كانت قد غزت شعوب الغال ، وأن الفرنجة كانوا يعقدون اجتماعاتهم فى ميدان مارس ، وقد اعتادوا أن يعينوا لهم رؤساء ؛ وهكذا لم تعد السلطة تستند على بعض امتياز إلهى ، أو تقليد روسانى ، بل على مبايعة من جانب كتلة المحاربين لسيد يختارونه بحرية . فالشعب ، كديموقراطية ، لم يكن له بعد وجود ؛ ولكن فكرة السلطة الشعبية كانت تتكشف ، مليئة بالمستقبل .

***

الغريزة : إنها لم تكن قد اكتسبت بعد عطف الناس ، ماداست تنفر المسيحيين وتقلقهم ، ومادام الفلاسفة لا يزالون يترددون فى حسبان الطبيعة خيّرة تامة الطيبة ، مفضلين جذبها نحو العقل . ولكنها على الأقل لم تكن غائبة تماما عن المشاغل الجارية . حينا يشهّر طبيب بالجاسعة ومبادئها ، و يمتدح طريقة علاج المرء لنفسه بنفسه ، وحفظ الصحة بالغريزة . وحينا ، يتكلم رجل مبتكر عن الالهام الشعرى ، فينسب مصدره إلى نوع من الجنون furor ، إلى جنون فائق ، إلى الغريزة . وفى هذا الصدد ، كان هناك عامل مضايق ، يتملص من الجهود الفكرية ، والقيود الاختيارية ؛ عامل لقى العقليون عناء كبيراً ليخضعوه للطاعة : الجليل الجمال Le sublime . لما قال الناس إنه ليس إلا الحقيقى والجديد مجتمعين فى فكرة كبيرة ، ومشروحين بأناقة ودقة ؛ وإنه بغير الحقيقى لا يمكن أن يوجد جمال جليل ، وبالتالى أى جليل : كانوا يشعرون أن الدعوى لم تنته بعد . لذلك كان يدفعهم ولع لا يقنع إلى سؤال لونجين(١) ، الذى لم يخش أن يعرّف هذه الكلمة الصعبة ، والذى كانت فى صفّه هيبة الأزمان القديمة . الجليل

---

(١) لونجين : Longin عالم البلاغة اليونانى مؤلف « بحث فى الجليل الجمال » *Traité du sublime* الذى ترجمه بوالو (٢١٣ - ٢٧٣) . [المترجمان]

الجمال — أليس بالرغم من كل شئ ، قيمة تخرج إلى حد ما عن رقابة العقل ؟

ماذا كانت تلك المناقشة حول أرواح الحيوان ، التى استمرت منذ ديكارت، والتى لم تكن قد أوشكت على الانتهاء ، وقد دعت إلى المبارزة المفتوحة الباب دائما ، أبطالا من كل نوع ، — ماذا كانت ، إن لم تكن احتجاجا فى صالح الغريزة ، وإن كان غامضاً ؟ لما جعل الناس يدافعون ، فلانا عن جواده العزيز ، وعلانا عن كلبه الأليف ، لم ينسبوا للحيوان روحا شبيهة بروح الانسان ؛ لم يطالبوا لها إلا بادراك جزئى : ولكنه كان واضحا أنها تحب ، وتتعذب ، وأنها لم تكن آلات ، ماداست الآلات لا صلة لها بالشعور : قال لافونتين منذ ذلك اليوم ، فى خطابه إلى مدام لاسابلبير إنه ينسب إلى الحيوان :

Non point une raison suivant notre manière,
Mais beaucoup plus aussi qu'un aveugle ressort :
Je subtiliserais un morceau de matière
Que l'on ne pourrait plus concevoir sans effort,
Quintescence d'atome, extrait de la lumière,
Je ne sais quoi plus vif et plus mobile encor
Que la flamme ...
Je rendrais mon ouvrage
Capable de sentir, juger, rien davantage,
Et juger imparfaitement ... (١)

كان « ماجالوتى » عالم الطبيعة الفلورنسى ، وروح مجمع « سيمنتو » أكثر جسارة ، فى استشهاده ضد ديكارت بحبنا للحيوان ، « الحب البالغ ، الحنون ، والذى كثيراً ما يبدو فى غاية الجنون والغباء ، الذى نكنه لكلب ، أو هر ، أو جواد ، أو ببغاء ، أو عصفور . » ولقد قال « دانتى » :

Amor, chà nullo amato amar perdonna ...

وقال « لوتاس » Le Tasse :

amiamo or quando
Esser si puote riamati amando;

---

(١) لا عقلا كالذى نعهده — بل شيئا أكثر من محرك أعمى :
لو أنى بخرت قطعة من مادة — حتى تصبح شيئا لا نستطيع تصوره بلا جهد ، جوهر ذرة ، أو خلاصة ضوء — أو شيئا أكثر حيوية وحركة — من اللهب ... لجعلت عملى — قادراً على الحس ، والحكم ، ولا شئ أكثر ، لكن حكما غير كامل ...

« نحن لا نحب إلا إذا كان محتملا أن نحب » . وإذن فإدمنا نحب الحيوان ، فلابد أنه يحبنا ؛ وإذن فهو لا يخلو من الاحساس . . . — بتلك الأصوات المتشعبة ، وفى تلك الظروف المختلفة ، كان يظهر فعل ذلك الجزء من الوجدان الذى يتوق إلى الاحساس : فقاعات تصاعد من أعماق المستنقعات ، وكثيراً ما تفنى على أديم المياه .

أيتها العرائس السعيدة ، أيها الرعاة السعداء ، الذين يعيشون حياة وادعة على مقربة من العيون ، وفى عزلة الغابات ، كم كان يحسدكم الناس فى هذه الأوقات المجدبة ! ويا أهل الأندلس القديم البسطاء ، يامن كنتم تستغنون بمثل تلك السهولة — فى أحلامكم اللذيذة — عما فى المدنية من مغالاة فى الرقة والترف ؛ كم كانوا يمتدحون سعادتكم ، التى يجهلها أولئك الذين كفوا عن اتباع قوانين الطبيعة ! « أوه . . . ما أبعد هذه الأخلاق عن الأخلاق الباطلة الطموحة للشعوب التى نظنها أوفر الشعوب حكمة ! لقد بلغنا من الفساد حداً لا نكاد معه نتصور أن هذه البساطة يمكن أن تكون حقيقية . نحن ننظر إلى أخلاق هذا الشعب كأنها أسطورة جميلة ، ولا ريب أن أخلاقنا تتراءى له كحلم مرعب ! » — أيها الهمجى السعيد ، بأى لهجة ثورية أعلن الناس أنك ينبغى أن تكون مثالا للحياة الكاملة ، وأن الأوربى ينبغى أن يجعل من نفسه هيرونيا (١) ! لقد أعلن أذكى الناس إفلاس العقل :

Source intarissable d'erreurs,
Poison qui corromps la droiture
Des sentiments de la nature,
Et la vérité de nos cœurs;
Feu follet, qui brilles pour nuire,
Charme des mortels insensés,
Esprit, je viens ici détruire
Les autels que l'on t'a dressés ... (٢)

---

(١) Hurons : قبيلة من مواطنى شمال أمريكا ... [المترجمان]

(٢) شوليو Chaulieu قصيدة ضد العقل ، ١٧٠٨ .
يامنبع الضلال الذى لا يغيض — أيها السم الذى يفسد استقامة المشاعر الطبيعية، وحقيقة القلوب ؛ — أيها اللهب الشيطانى الذى يلمع ليغوى ويؤذى ، — يافتنة الغافلين ، — أيها العقل ، لقد جئت لأدمر الهياكل — التى أقيمت لك ...

Esprit ! tu séduis, on t'admire,
Mais rarement on t'aimera ;
Ce qui sûrement touchera
C'est ce que le cœur nous fait dire ;
C'est ce langage de nos cœurs
Qui saisit l'âme et qui l'agite ;
Et de faire couler nos pleurs
Tu n'auras jamais le mérite . . . (١)

أما الناس الأقل إحساساً ، ولكنهم أحذق فى تنسم الريح ، فقد أعلنوا سساوىء العقل :

C'est elle qui nous fait accroire
Que tout cède à notre pouvoir ;
Qui nourrit notre folle gloire
De l'ivresse d'un faux savoir ;
Qui par cent nouveaux stratagèmes
Nous masquant sans cesse à nous-mêmes
Parmi les vices nous endort :
Du Furieux fait un Achille,
Du Fourbe un Politique habile,
Et de l'athée un Esprit fort.

Mais vous, mortels, qui dans le monde
Croyant tenir les premiers rangs
Plaignez l'ignorance profonde
De tant de peuples différents, (٢)

---

(١) أيها العقل ! إنك تفتن وتعجب — ولكن يندر أن تحب ؛ — إن الذى يؤثر بكل تأكيد ، هو ما يمليه علينا القلب ؛ — إن لغة القلوب هى التى تملك النفس ؛ ولن يكون لك أبدا — فضل إسالة الدموع ...

(٢) جان باتست روسو Jean-Baptiste Rousseau القصيدة التاسعة ، إلى المركيز دى لافار .
هو الذى يجعلنا نظن — أن كل شىء يذعن لقدرتنا — هو الذى يغذى عظمتنا الجنونية ، بنشوة علم باطل — هو الذى يعمينا عن حقيقة أنفسنا — بمائة حيلة حديثة — فيستبقينا فى أحضان الرذيلة — يخلق من كل ثائر « أشيلا » — ومن الخداع سياسيا حاذقاً — ومن الكافر « عقلا قويا » .

أما أنتم يا من تظنون — أنكم فى مقدمة الصفوف فى الدنيا — فتشفقون على الجهل العميق ، لكل تلك الشعوب — يا من تخلطون بين الحيوان —

Qui confondez avec la brute
Ce Huron caché sous sa hutte
Au seul instinct presque réduit :
Parlez : quel est le moins barbare
D'une raison qui vous égare
Ou d'un instinct qui le conduit ? (١)

منذئذ ، بدأ يظهر تعبير مؤثر لهـذا الشعور ، لهذه الحاجة إلى اطراح كل الخدع المتكتلة : عبء القرون الذى يثقل كاهلنا ، والنفاق الذى ندعوه أخلاقا دون أن نصدق بها . كان هناك ذات مرة إنجليزى يدعى « توماس إنكل » ، ثالث أبناء أحد مواطنى لندن الأثرياء ؛ أبحر إلى بلاد الهند الشرقية للاتجار . وفى أثناء رسو السفينة فى أحد الثغور ، اغتال الهنود فريقاً من جماعته ؛ وهرب واختبأ ، واكتشفته هندية ، فتية جميلة ، اسمها « ياريكو » . ولقـد أحبت ذلك الأجنبى ، ذلك التعس ؛ ووهبته نفسها جسما وروحاً ؛ وتولت غذاءه واستبقته ؛ فوعدها بأن يصطحبها إلى انجلترا إذا تهيأت الفرصة . وذات يوم لمحا شراع سفينة فأشارا إليها : واقتربت السفينة ، ونزل بعض البحارة ثم اقتادوهما إليها : فكانت السلامة . ولكن على طول الطريق ، جعل توماس إنكل يحلم . ماذا سيفعل بهذه المرأة ؟ لقد أضاع وقته ، وماله : اعتزم أن يبيعها كأمة فى أقرب ميناء . بكت الهندية وأنّت ، وحاولت أن تمس شغاف قلب عشيقها ؛ ولما كانت حاملا فقد باعها توماس إنكل بثمن غال . هكذا يتصرف المتمدنون (٢) . . .

وذات يوم صادف فونتنل الغريزة فى الطريق ؛ فأخذه الدهش ، بل تكدر لهذا الظهور . « أعنى بكلمة غريزة شيئا مضافا إلى عقلى ؛ يولدمفعولا مفيداً لحفظ كيانى ؛ شيئا أفعله دون أن أعرف لماذا ، ومع ذلك فهو يفيدنى كل الفائدة : وفى ذلك كل أعجوبة الغريزة ... » ولما كان لا يمكن أن يقبل مثل هذا الخروج على المنطق ، وسادسنا قد اتفقنا على أن « العجيب » ليس له أى حق فى الوجود ، فانه يتوسل بأصعب رياضة ذهنية ، وبأحذق البراهين

(١) وذلك الهيرونى اللائذ بالكوخ — الذى يعيش على الفطرة — فلتتكلموا : أيهما أقل بربرية — العقل الذى يضلكم — أم الغريزة التى تقوده ؟

(٢) سبكتاتور ، رقم ١١ .

ليثبت أن الغريزة ليست إلا عقلا يتردد ، عقلا لم ينتخب بعد ، بشكل واع بصير ، وسيلة من وسائل العمل المختلفة التى تعرض له : ومنذئذ يعد فونتنل نفسه مطمئنا .

ويخيل إلينا أننا لازلنا بمبعدة عن « الغريزة الالهية » التى سيمجدها جان جاك روسو . لكن أقل مما نظن ، إذا نحن — بدلا من أن نبحث عند الذين لا يستطيعون العيش دون ترف الحياة — سألنا أصحاب الطبع الخشن ، وإذا وجدنا لدى سويسرى يدعى بيات دى سورا ، تصويراً أوليا لقال روسو الشهير :

« منذ ما فقد الانسان شغله وكرامته ، فقد أيضاً معرفة ما يخصه ، وفى تلك البلبلة التى نعيش فيها ، لا نعرف ماهية كرامتنا ومشاغلنا . ولما كان النظام وحده هو القادر على أن يرد لنا هذه المعرفة ، فظنى أن هناك وسيلة واحدة للبقاء فى النظام : هى اتباع الغريزة التى تكمن فينا . الغريزة الالهية التى ربما تكون كل ما تبقى لنا من حالة الانسان البدائية ، والتى تركت لنا لاعادتنا إلى هذه الحالة . كل المخلوقات الحية التى نعرفها لها غريزة لا تخدعها أبداً . فهل الانسان ، الذى يفوق فى كماله كل هذه المخلوقات ، ليس له غريزة ، بحيث تشمل كل خلقه ، وبحيث يكون فيها من الوثوق بقدر ما فيها من الشمول ؟ لا شك فى أن له غريزة ، وهذه الغريزة هى صوت ضميره ، حيث يتصل الاله بنا ويحدثنا . . . (١) »

« الغريزة الالهية التى ربما تكون كل ماتبقى لنا من حالة الانسان البدائية ، والتى تركت لنا لاعادتنا إلى هذه الحالة » : هل من الممكن أن نجلجل بنداء الرجل البدائى جلجلة أوضح وأعلى من هذه ؟

---

(١) رسالة عن الرحلات ، كتبت فيما بين ١٦٩٨ ، ١٧٠٠ . انظر إلى طبعة ش .جود ، ١٩٣٣ ص ٢٨٨ .

الفصل الخامس

سيكولوجية القلق ، استطيقا الشعور ، ميتافيزيقا الجوهر ، والعلم الجديد

سيكولوجية القلق

لقد أمسك لوك عن الألعاب الكبرى ، كما قلنا ؛ ولما كان رجلا متواضعا ، فقد ترك البحث عن الحقائق السامية ، وقنع بالحقائق النسبية ، التى يمكن أن تلمسها أياديا الضعيفة . وإن من يطلب منه التحليق العالى فى سماء الخيال ، لمخطئ فى العنوان ؛ فان لوك الحكيم لن يدله إلا على طريق أمين سالم نحو يقين متواضع ، طريق ممهد ، خال من النزوات .

ومع ذلك ، فأى نتائج مستقبلية ، فى توكيده هذا : إن الاحساس هو العمل الأوّلى للنفس ! لأن هذا التوكيد — إذا فكرنا فيه جيداً — يثير انقلابا فى القيم التدرجية التى كانت تبدو حتى ذلك الوقت أثبت القيم الموروثة . فالأفكار النبيلة ، أجمل الأفكار وأنقاها ؛ والمبادئ الأخلاقية ، ونشاط النفس ، كل هذا منشؤه الاحساس . والعقل الذى يؤثر على الاحساس نفسه ، ليس مع ذلك إلا عاملا ، عاملا معاونا : فلا حياة عقلية بلا حياة عاطفية تسيطر عليها . إن التابع يصبح سيداً ؛ إنه يستقر ، لقد فاز بحق الرشد وحق الاصالة ؛ وإن شهاداته لمسجلة فى « المقال عن الادراك الانسانى » .

إنه ليس جوهر النفس — ولكن جوهر النفس يستحيل إدراكه ؛ والشئ المحقق أن هـذا الامتياز لا يمكن نسبته ، بأى حال ، إلى الفكر . لو كانت النفس فى جوهرها فكرًا ، لما كنا نراها تمر بحالات مختلفة (كما نراها فعلا) ، منذ الانتباه وما يصحبه من مجهود كبير إلى حالة توشك فيها على الفناء . إن

الفكر يختفى اختفاء تاما فى أثناء النوم ؛ وهو حتى عند الرجل اليقظان ، يمر بلحظات من الضعف والغموض تقترب كثيراً من العدم : وهذا الاختفاء ، هذا التغير ، هذا الاقلال ، ليس من خصائص الجوهر ، بل من خصائص الفعل ، الذى يحتمل الانقطاع والاهمال .

بل أكثر من ذلك : إن سيكولوجية الرغبة والقلق لنتيجة لهذا الترتيب الجديد للقيم .

واعجباه ! هل كانت نفس « رجل العاطفة » من إعداد لوك ؟ وسانت برو ؟ وفرتر ؟ ورينيه ؟ (١) — إنهم جميعا ليسوا من نسله المباشر ؛ ولكن ، فى مختلف الأسباب التى تحول عقلية الأجيال المتتابعة ، وفى تطور حالة نفسانية ستنتهى بأن تطلب من القلب إشباع رغبات لم يحققها لها العقل ، — فلنحسب ، فلنحسب بلا تردد فلسفة لوك . هاك ما قالته هذه الفلسفة قبل أن ينتهى القرن السابع عشر :

« إن القلق الذى يستشعره المرء فى دخيلته ، لغياب شئ قد يهيئ له متعة إذا كان موجوداً ، هو ما نسميه « رغبة » ، وهذه الرغبة تضعف أو تشتد ، بحسب ما يكون عليه قلقه من ضعف أو شدة . ولعله لا يخلو من فائدة أن نلاحظ ملاحظة عابرة ، أن القلق هو المحرك الأساسى ، إن لم يكن الوحيد ، الذى يثير اجتهاد ونشاط الناس . . . (٢) »

Uneasiness : تلك هى كلمة النص الانجليزى ، ولقد توقّف عندها المترجم ، بيير كوست ، لأنه لم يجد مرادفاً لها فى الفرنسية ؛ فترجمها بكلمة « قلق » *inquiétude* ، لعدم وجود ما يفضلها ، وكتبها بأحرف مائلة خاصة ، ليبين أنها تتضمن معنى خاصا جديداً . وسيصادفها مراراً ، لأن لوك يصر عليها : « كل من يتأمل فى نفسه ، سرعان ما يجد أن الرغبة حالة من القلق ،

---

(١) سانت برو Saint-Preux بطل رواية « هيلويز الجديدة » أو جوليا *Julie* تأليف جان جاك روسو ؛ وفرتر *Werther* بطل رواية جوته « فرتر » ؛ ورينيه *René* بطل رواية شاتو بريان (رينيه) . ويمثل فرتر ورينيه ، الرجل الذى يعيش فى قلق وعذاب نفس ، بسبب قلبه المريض ، الذى يشمئز من الحياة المادية الملموسة ، ويبتغى أن يتخيل فى أفق لامتناه . [المترجمان]

(٢) مقال عن الادراك الانسانى ، ج ٢ ، الكتاب الثانى ، الفصل العشرون .

لأنه من ذا الذى لم يشعر فى حالة الرغبة بما قاله الحكيم عن الرجاء — الذى لا يفترق كثيراً عن الرغبة — والذى إذا ماطل يمرض القلب (أمثال ، الاصحاح الثالث عشر، ١٢)(١) ؛ وذلك بصورة متناسبة مع شدة الرغبة ، التى تصل بالقلق فى بعض الأحيان إلى الدرجة التى جعلت راحيل (٢) تصيح : هبنى بنين ، هبنى ما أريد ، وإلا أمت ؟(٣) » .

ليس وجود شئ معين هو الذى يدفعنا إلى العمل ، بل عدم وجوده . إن أفعالنا رهن بارادتنا ، ومحرك إرادتنا هو القلق . ونحن ، بدون القلق ، نقع فى حالة جمود وخمود : فعليه تتوقف آمالنا ، ومخاوفنا ، وأفراحنا ، وأحزاننا ؛ عليه تتوقف عواطفنا ؛ عليه تتوقف حياتنا . وسيعود أشياع لوك إلى هذا الموضوع ، حتى يصلوا به إلى أقصى سعته . سيعلن كوندياك — فى شهادته لأستاذه (وعنده أنه بين أرسطو ولوك لا توجد فلسفة جديرة بهذا الاسم) ، أنه لا يزال علينا ، بعد لوك ، أن نثبت أن القلق هو المبدأ الأول الذى تنشأ عنه عادات اللمس ، والرؤية ، والسمع ، والحس ، والتذوق ، والمقارنة ، والتقدير ، والتفكير : كالرغبة ، والحب ، والكره ، والخوف ، والأمل ، والارادة ؛ وأن القلق يولد كل عادات نفسنا وجسدنا . وسيمجد الرغبة ، ويعرف الضجر ، عذاب النفس . وسيعزّز هلفسيوس قول كوندياك ، مصراً على قوة العواطف ، وعلى الألم الذى يخلقه الضجر ، مبيناً أن العاطفيين يفوقون المتعقلين ، وأننا نصبح أغبياء بمجرد ما نقلع عن العاطفة . — لقد بحث الناس عن مختلف الوسائل لتأويل النفسية الروسانتيكية ، دون أن يدور بخلدهم أن يلتفتوا نحو لوك : إن لوك قد توصل إلى الانسيكلوبيديا ، إن لوك خلق علماء الأفكار : هذا كثير . ولكنه أيضاً الرجل الذى لاحظ فى النفس القلق الذى يعذبنا ، والذى جعل منه مبدأ إرادتنا وأفعالنا .

---

(١) « الرجاء المماطل يمرض القلب والشهوة المتممة شجرة حيوة » (العهد القديم) . [المترجمان]

(٢) « فلما رأت راحيل أنها لم تلد ليعقوب غارت راحيل من أختها وقالت ليعقوب هب لى بنين وإلا فأنا أموت . » (تكوين ، الاصحاح الثلاثون) . [المترجمان]

(٣) مقال عن الادراك الانسانى ، الكتاب الثانى، الفصل ٢١ ، ترجمة بيير كوست .

وحين يشتغل لوك بالتربية ؛ حين يصنع مخلوقا بشريا ، موحداً بين تجربته كرب وبين مثله الأعلى كفيلسوف ، فإذا عساه يسعى أن يربى فيه ، إن لم تكن الاختيارية الطبيعية ؟ إنه يقف موقف الثائر ، ويحتج على طريقة تنشئة الأطفال المتبعة فيما حوله . فهم أولا ليسوا أشباحاً ، فلكل منهم ذراعان ، وساقان ، وصدراً ، وبعدة ؛ جسم ينبغى أن نقويه بمختلف وسائل التدريب ، لكى نجعله صحيحاً وسليما . أما ذهنهم ، فيجب أن يحكمه العقل : لا «الروتين» ؛ لا سلطة خارجية تعمل دون أن تقابلها موافقة نفسية ، ولا قاعدة تعسفية تطبق على المجموع دون تمييز . ذلك أنه فى كل طفل ملكة طبيعية يجب أن يحسب حسابها . « يجب أن نذهب بالملكة الطبيعية لكل طفل إلى أبعد ما نستطيع . أما الشروع فى إضافة ملكة أخرى إلى ملكته ، تختلف عنها كل الاختلاف ، فهو عناء لا ثمرة فيه . كل عمل من هذا القبيل ، لن يؤدى بنا على الأكثر إلا إلى صورة سيئة زرية ؛ إذ نرى فيها دائما تلك الهيئة المنفرة التى يخلفها الاجبار والتكلف على الدوام . » — « إن الطبيعة البسيطة غير المصقولة ، المتروكة على سجيتها ، لخير من جمال سئ مصطنع ، ومن كل الأساليب المدروسة لاخفاء الخلق الطبيعى وإفساده بدلا من تقويمه . » ينبغى أن تؤثر الفضيلة على المعرفة : لأن المهم فى الحياة ، ليس أن نعرف الكثير ، بل أن نكون شرفاء طيبين . وفوق ذلك ينبغى ، لكى نودع فى الطفل أقل المعرفة التى تلزمه ، أن نحسب حساب تلك الاختيارية التى لا يكف لوك عن التفكير فيها . علينا أن نختار المكان والساعة ، وملاءمة اللحظة ، واستطلاع الطفل . إن التعليم لو فرض كمهمة إجبارية ، كحمل ثقيل ، يصبح مضايقاً غير مستساغ : فلنستفد من هذا المزاج ، من ذاك الاستعداد الموقوت ، وسنرى كيف تسهل المهمة . يجب مساعدة الطبيعة وتقويمها وتوجيهها ، لكن دون أن نخالجها فى ذلك شبهة : ولنستعمل الحيلة قليلا عند الحاجة ، حتى يكون مظهرها أكثر طبيعية .

الفرد : هذا هو فى الأصل ما يهم لوك : لا مدارس عامة . بل مرب حكيم ، يحل محل الأب ، ويضحى بنفسه دون تحفظ ، لتلميذه . لا عقوبات جسدية ، تجلب المهانة والذل . أقل إجبار ممكن ، فيما عدا السنوات الأولى ؛ على أن نزيد الحرية مع مرور الزمن . يجب اتخاذ ألف تحوط بارع حول النبات

الصغير الذى يشق طريقه ؛ وحبذا ألف تدليل حاذق لتبرير الدروس التى نريد أن نودعها فيه . وفى هذه التربية التى تتراءى فى غاية البساطة واليسر ، بينما هى فى الواقع فى غاية التعقيد والكبر ؛ والتى تريد أحياناً أن تبلغ فى رواقيتها مبلغ الشدة ، بينما هى فى معظم الوقت تطلب من الحساسية كل شئ ، وتسمح لها بكل شئ ؛ والتى لا تكف عن الحديث عن الحقائق الواقعية مع أنها زاخرة بالأحلام ؛ فى هذه التربية التى هى برنامج مخصص لتلميذ ، وفى نفس الوقت رواية يسجل فيها الأستاذ ثورته ، وأسفه ، وآلامه ، ورغباته : نرى هنا أيضاً الرجل الذى سيؤكد علنا ، بعد سبعين عاما ، إيثاره للوك : جان جاك روسو Jean-Jacques Rousseau .

استطيقا الشعور

« إن الذهن الفلسفى الذى يجعل الناس « متعقلين » إلى هذا الحد ، سيجعل شطراً كبيراً من أوروبا ما جعل القوط والوندل (التيوتون) منها فيما سبق . . . أرى الفنون الضرورية ، سهملة ؛ والمعتقدات المكتسبة النافعة كل النفع للمجتمع ، تفنى ؛ والتفكير النظرى مفضلا على الحياة العملية . إننا نتصرف دون أى تقدير للتجربة ، أصلح مرشد للجنس البشرى . والعناية بالأجيال المقبلة ، سهملة كل الاهمال . وكل النفقات التى تكبدها أجدادنا فى العقارات والمنقولات قد كنا نفقدها ، ولم نكن لنلاقى فى الغابات خشباً للبناء ، ولا حتى للتدفئة ، لو أنهم كانوا « متعقلين » بالطريقة التى نحن عليها الآن. » إن الذى يسمعنا هذه الأقوال الجريئة هو الأب ديبو Dubos . إن « تأملاته النقدية عن الشعر والرسم » التى ظهرت فى عام ١٧١٩ ، لنتيجة لدراسة بطيئة عميقة .

كان هناك فريقان ، الأول فريق أولئك الذين يريدون تحويل الفن نفسه إلى عقل صاف . ما هو الجميل ؟ ما هو الذوق السليم ، الذى يتيح لنا تمييز الجميل ؟ ما هو الجليل الجلال ؟ مسائل عويصة ! كان هناك الفلاسفة ؛ وليس الفلاسفة فحسب ، بل كل أولئك الذين لا يثقون إلا بالذهن الهندسى لايجاد الحلول ، وإن لم يكونوا فلاسفة — سواء بحسب العادة أو الانسياق

أو البدع . — كانوا يقولون ، كما سمعناهم ، إن الجميل هو الحقيقى أو على الأقل شبه الحقيقى ؛ وما دام هو الحقيقة فهو يشارك من جانبه فى الأخلاق والفضيلة ؛ وإن الذوق السليم يقوم على مبادئ ، على نماذج ، وبالتالى يستطيع أن ينطق بأحكام أكيدة طبقاً لقواعد ثابتة مكينة .

طبق فلسفة الفن هذه فى الحياة العملية : تصل إلى «التأكدم» Académisme . تقليد القدماء . معرفة تامة لقواعد فنية ، على كل فرد أن يخضع مواهبه لها . دراسة الطبيعة : لكن فى الوقت نفسه ، كيفية تقويم هذه الطبيعة وتنظيمها ، التى تبيح — فى تفاصيلها — كثيراً من النزوات والأهواء . لقد أصبح لو برات Le Brun رسام لويس الرابع عشر ، الذى خلده النجاح والزمن ، والسلطة الملكية ، شبه مؤسسة ؛ إن لو برات هذا — الذى يذكّرنا مجرد ذكر اسمه بمجموعة من اللوحات الفخمة المثلجة فى إطاراتها الذهبية ، يعلم تلاميذه أصول التعبير : كيف يجب تصوير الغضب ، الدهشة ، والفزع ؛ أو — وهو الأصعب — التقدير ، الاعجاب ، التبجيل . من التقدير إلى الاعجاب : « لا يعترى الوجه إلا أقل القليل من التغير فى كل ملامحه ، وإذا حدث تغير ، فانما يكون فى رفع الحاجب ليس غير ؛ لكن بشرط أن يبقى الجانبان متساويين ، وتكون فتحة العين أوسع قليلا من المعتاد ، وكذا الحدقة بين الجفنين ، مثبتة دون حركة على الشئ الذى أثار الاعجاب . ويفتح الفم أيضاً نصف فتحة ، على أن يبدو بدون تغير ، مثله فى ذلك مثل بقية ملامح الوجه . » وهكذا فيما تبقى ؛ كل شئ مقدر ، مرتب ومنظم . الجمال هو العقل موضوعا فى « روشتة » . . .

والفريق الثانى أقل عدداً ؛ الرسامون الذين لا يقنعون بلو برات كنموذج ، والمثالون الذين يسعون إلى الابتعاد عن نماذج « برنان » ليستبدلوا الظرف والجمال بالنبل والفخامة ، والمعماريون الذين يحلمون ببناء مساكن جميلة يؤوى فيها المتحررون عشيقاتهم ، بدلا من كنائس مشيدة على طراز « جيزو » ، أو قصور على طراز فرسايل : شباب يتحرقون وقد فرغ صبرهم إلى قطع كل صلة بالكبار ، بالأساتذة . ثم هواة يواجهون المحترفين ، وفى ثورتهم على التقاليد الأكاديمية ، يجترئون فى المطالبة بحقهم فى إعزاز ما يروق لهم : مثل روجيه دى بيل الذى يفضل رامبراندت Rembrandt وعلى الأخص روبنز Rubens على

المدرسة البولونية(١) ، ولا يتورع من إعلان ذلك دون حياء . إنه ليس ثوريا على وجه التدقيق ، بمعنى أنه لا يهاجم المذاهب السائدة مدفوعا برأى مبتسر ؛ لكنه يريد أن يكون رجلا لا ينقص من شخصيته : وهذا بحسب الظروف ، أقل من الثائر قليلا ، أو أكثر منه كثيراً . بل حتى خلوه من الرأى المبتسر يشارك فى إضفاء لون طريف من الحرية على أقواله . فمثلا : « إن العبقرية أول شئ يجب أن نفترضه فى الرسام . هذا أمر لا يمكنه اكتسابه بالدراسة ولا بالعمل . . . » — « إن الاجازة من الضرورة بحيث لا يخلو منها فن من الفنون . إنها تخالف القواعد ، إذا التزمنا الحرفية ، أما إذا أخذنا بالروح ، فان الاجازة تصبح قاعدة إذا استعملت استعمالا مناسبا . . . (٢)»

من بين أولئك المتمردين ، يبرز الأب ديبو . لأنه يجمع بين مزايا نادرة ، فهو فى الوقت نفسه رجل مجتمع وعالم ضليع : فلم يكن تردده على المجامع العلمية يقل عن تردده على دور الأوبرا . ولأنه أوتى ذهناً رقيقاً ، وقويماً معا . ولأنه فرنسى جداً ، ومختلط . ولأنه رجل عمل ، وفيلسوف . ولأن مخالطته للوك (وقد عرفه فى لندن ، واستوثق من أمانة ترجمة بيير كوست بمراجعتها على النص الأصلى) دفعت به صوب مصدر الحساسية الذى كشفه الانجليزى الكبير : وأدرك ديبو أن هذه الحساسية يمكنها أن تروى ظمأ المعاصرين غير المفهوم . إن الحساسية منبع الجميل ، منبع الجليل الجمال ، ومنبع الفن . وهو يأخذ على عاتقه إثبات ذلك للناس .

إن « التأملات النقدية عن الشعر والرسم » تعج بالأفكار ؛ لقد أجرى الأب ديبو كثيراً من التجارب ، وشهد كثيراً من اللوحات ، وحضر كثيراً من الكوميديات والتراجيديات والأوبرات ؛ إنه يهوى المحادثة ، المحادثة التى لا تقنع بالكلمات بل تعمل على إذكاء التفكير ؛ وهو لبق كل اللباقة ولو لم يملك الحقيقة تماما ، حتى إن كتابه ليعطيك تأثيراً عن ثروة لا ينضب لها معين .

---

(١) المدرسة البولونية . نسبة إلى مدينة بولونيا بايطاليا ، مقر مدرسة مشهور فى عصر النهضة . وراسبراندت رسام هولندى شهير من أهل ليون ، يعد من أكبر عباقرة الرسم ، وروبنز رسام شهير من أهل الفلاندر ومن روائعه « صلب القديس بطرس ، وصورة هيلين (١٥٧٧-١٦٤٠). [المترجمان]

(٢) مختصر عن حياة الرسامين ، ١٦٩٩ .

إنه يريد أن يدخل عليه شيئاً من التوازن ، ويقسمه إلى أجزاء : إلا أن بعضها قصير وبعضها طويل ، والشروح تقف أو تستطيل على هواها ؛ والموضوعات تختفى بعد أن تتناول ، أو تتكرر كيفما تشاء : هذا ليس بالتأليف الكلاسيكى العظيم على الاطلاق ، بل إنه من نوع « روح القوانين » وإن كان أقل منه تألقاً . إن الحساسية التى تتحرر بكل مشقة من روح التحليل ، تتبدى بفضل عناية ذكاء رقيق ، يستعين بالمثل والواقع .

أى نفوذ « للمؤثر » على النفوس ! أليس عجيباً أن نرى الشعر والرسم يثيران فينا إعجابا أكثر لو نجحا فى أن يحزنا قلوبنا ؟ إذا وجدنا فى بهو عرض ، فان اللوحة التى تمثل التضحية البشعة بابنه « يفتاح »(١) تستبقينا أطول من اللوحات المرحة وتغرينا أكثر منها . إن قصيدة موضوعها الأساسى وفاة أميرة فتية ، تدخل فى برنامج إحدى الحفلات ، وهذه الفاجعة تفتن جماعة لم تجتمع إلا بقصد التسلية . « أبيح لنفسى أن أوضح هذا الواقع الغريب ، وأن أشرح مصدر المتعة التى تفيئها علينا الأشعار واللوحات . . . »

الواقع : أن أعدى أعداء الناس السأم . وهم يتخلصون منه إما بالاحساس وإما بالتأمل . إلا أن الوسيلة الأولى أقوى ؛ إن العاطفة تتملكنا تمام الامتلاك . وإن الانفعال الذى تثيره فينا ليبلغ من الحيوية أن كل حالة نفسية أخرى لتبدو بازائه خموداً . إلا أن العواطف الحقيقية لها عواقب خطيرة ، اها بتجارب أليمة . فماذا نحن فاعلون إذن ؟ نحن نقلد الموضوعات التى قد ث فينا العواطف الحقيقية . تلك سهمة الفن . « إن الرسم والشعر يبعثان بنا هذه العواطف الصناعية ، بتقديمهما لنا تقليداً للموضوعات القادرة على أن تبعث فينا العواطف الحقيقية . »

إذن ، فالصيغة المتفق عليها عموما : الفن يساوى العقل ، لا قيمة لها . الفن يساوى العاطفة ؛ عاطفة مصفاة ، لكن ممثلة فى كل قوتها . ودرجة القوة العاطفية هذه ، تفسر تدرج الأنواع : فالتراجيديا تؤثر فينا أكثر مما تؤثر الكوميديا ؛ « كل نوع يؤثر فينا بقدر ما يستطيع الموضوع — الذى من جوهره

---

(١) قصة يفتاح الحلباوى وابنته (العهد القديم ، قضاة ، الاصحاح الحادى عشر) . [المترجمان]

أن يصوره ويقلده — أن يؤثر فينا . لذلك يجتذبنا النوع الرثائى والنوع الرعائى أكثر مما يجتذبنا النوع المسرحى . » ورويداً رويداً يتجدد كل شئ ، سواء فى التأليف أو فى النقد ، مادام الأمر لا يتعلق إلا بتصوير العواطف بصورة فعالة ، ومعرفة ما إذا كانت قد صورت بهذه الصورة أو لم تصور . إن الأب ديبو سوف يذهب فى بحثه عن سر الفن ، حتى أعمق أغوار كياننا ، حتى الاحساس ، القيمة الأولى : إن القيم الفكرية لا تظهر بالنسبة إليها إلا شاحبة ، هزيلة ، صناعية . إنه يقول « أعتقد أن نفوذ الرسم على الناس لأبلغ من نفوذ الشعر ، وقوام اعتقادى هذا سببان . أولها أن الرسم يؤثر علينا عن طريق حاسة البصر . والثانى أن الرسم لا يستعمل علامات اصطناعية كما يفعل الشعر ، بل علامات طبيعية . وبالعلامات الطبيعية يؤدى الرسم تقليده . » إن المتعة التى يفيئها الأسلوب حسية . والمتعة التى تفيئها موسيقا الشعر هى الأخرى حسية . وما أبعد العبقرية عن أن تكون موهبة ضعيفة نحاول عبثا أن نقويها بالتقليد ، والتدريب ، بل هى موهبة طبيعية ، قوة بدائية ، لا شئ يعوقهـا ، تعلو على القواعد والقوانين . وما من ريب فى أنها قوة فيزيقية : « هذه العبقرية شعلة إلهية ، حمية ، لها بلا ريب أسباب فيزيقية ، مزية خاصة فى الدم ، مضافة إلى استعداد حسن فى الأعضاء . » وسنعرف ذلك فيما بعد ، عندما تكتسب هذه الشروح الفيزيقية ، غير الكاملة اليوم ، الضمان الكافى . ولكن ، يمكننا أن نتساءل من الآن عما إذا لم يكن للأسباب الفيزيقية نصيب فى التقدم العجيب للآداب والفنون ؟ عما إذا كانت الشمس ، والهواء ، والجو لا تؤثر على إنتاج الرسامين والشعراء ؟ عما إذا كانت هذه القوات لا تؤثر على الآلة البشرية بأسرها ؟ إن صفات ذهننا وميولنا تتوقف كثيراً على خصائص دمنا ؛ وهذه الخصائص تتوقف على الهواء الذى نستنشقه ، وعلى الأخص فى فترة تكويننا ، فترة طفولتنا : ذلك هو بلا ريب السبب فى أن الشعوب التى تعيش فى أجـواء مختلفة ، تختلف ذهنا ، كما تختلف ميولا . . .

إن ديبو يقف عند هذه النقطة . أى مرحلة قطعناها ! أى علامة ساطعة على ثورة مزدوجة ، ضد الطريقة الأكاديمية الدجماطيقية ، وضد التجرد العقلى من جهة أخرى ! حينما سطر الأب ديبو أفكاره ، لم تكن كلمة « استطيقا » قد اخترعت بعد . إنها لن تظهر إلا فى عام ١٧٣٥ ، فى رسالة دكتوراة لشاب

ألمانى ، اسكندر أميديه بوجارتن . ومع ذلك نجد فى « التأملات النقدية » محاولة استطيقية تستند على الشعور . الألوان والأصوات ، الأرض والمياه والسماء ، كل ما نرى ، ونسمع ، ونلمس ، كل ما يتصل بحياتنا الحسية ، كل ما فى دخيلتنا ، من عاطفية ، وحيوانية ، ومادية على وجه التقريب — كل هذه تحتج على نسيان العقل الخالص لها وازدرائه إياها .

ميتافيزيقا الجوهر

فى فلسفة ليبنتز ، نستطيع أن نجد مطالبة أخرى : مطالبة بميتافيزيقا تستند على قيمة اللامتناهى فى الصغر ، مالا يرى ، مالا يدرك ، الغامض ؛ على قدرة « الديناميكية » النفسية ؛ على وجود جواهر بسيطة هى بمثابة ماهية الغريزة الحيوية ، ماهية « الإنية » .

لم يكن ليبنتز ليقبل أن يكون للهندسة التفسير النهائى للأشياء . وكان يكن لديكارت إعجابا خالصاً ، لكن مع نفور أخذ يتكشف من كتاب إلى كتاب ، إلى أن كتب أخيراً وصيته الفلسفية « المونادولوجيا » Monadologie فى عام ١٧١٤ ، قبل وفاته بسنتين . ولم تنشر مباشرة ؛ إذ أخفاها الأمير « أوجين دى سافوا » فى صندوق صغير ؛ ولم يطلع عليها إلا بعض العلماء الاختصاصيين : كنز مخفى . . . وسوف يأتى اليوم الذى تخرج فيه المرسائل والأبحاث من ثنايا الظلام ، حيث يفتح الصندوق الصغير ، وحيث يؤثر الجوهر الروحى الذى يتضمنه تأثير الخميرة .

كان يأخذ على ديكارت إغفاله للعناصر الهامة ، بما اقترفه من خلط بين الامتداد والجوهر ، بين الحركة والقوة الحية . ووضوحه البادى الذى يرجع إلى أسلوبه فى البت فى كل شئ إلى قسمين ، وإهماله للتدرج الذى يوصلنا إلى اللامتناهيات فى الصغر ، وجهله بأحاسيس النفس الغامضة . لقد قال صراحة فى « المونادولوجيا » إن عدم حسبان الأحاسيس التى لا ندركها ، هو موضع القصور فى المذهب الديكارتى : كما أنه ذكر قبل ذلك بعشر سنوات فى كتابه « مقال جديد عن الادراك الانسانى » ، أنه فى كل لحظة تحدث فى أنفسنا تغيرات كثيرة لا نحسها ، لأنه إما أن تأثراتنا ضعيفة جداً وعديدة ،

وإما أنها متحدة . لقد جعلتنا العادة لا نهتم لحركة طاحون أو مسقط مياه ، لو عشنا على مقربة من أيهما فترة من الزمن ؛ ومع ذلك فان هذه الحركة تؤثر دائما على أعضائنا . عندما نكون على الشاطئ نسمع صخب البحر : ينبغى أن نحس إذن صوت كل قطرة فى كل موجة : ومع ذلك نحن لا نحسها . إن ديكارت لم يلاحظ هذه الأحاسيس غير المحسوسة ، التى هى أساس الحياة السيكولوجية . « نحن مضطرون إلى الاعتراف بأن الاحساس Perception وما يتعلق به ، لا يمكن شرحه بالأسباب الميكانيكية ، أى بالصور وبالحركات . ولو افترضنا أن فى الاحساس آلة ، تجعلنا عدتها نفكر ، ونشعر ، ونحس ؛لاستطعنا أن نتخيلها تكبر محتفظة بنفس النسب ، بحيث يمكننا أن ندخل فيها كما ندخل فى طاحون . أما وقد افترضنا ذلك ، فلن نجد فى داخل هذه الآلة عند زيارتنا لها ، إلا قطعاً تدفع كل منها الأخرى ، ولن نجد فيها أى شئ يشرح لنا الاحساس. وهكذا ينبغى أن نبحث عنه فى الجوهر البسيط ، لا فى المركب ولا فى الآلة...»

هذا الجوهر البسيط هو « الجوهر الفرد » La Monade ، الذرة الحقيقية للطبيعة ، عنصر الأشياء . وما يسترعى النظر فى طريقة شرح ليبنتز لخصائص هذا الجوهر الفرد — الذى يأخذ التفسير المبدئى للحياة من الفزيقا وينسبه إلى الميتافيزيقا — هو الدفاع عن قوة نفسية فردية وحمايتها ؛ فبينما يعمل سبينوزا على تحويل الخاص إلى الشامل ، ينشد ليبنتز توافقاً يمثل فيه الشامل دون أن يفقد الخاص حقوقه . لا يمكن أن يتغير الجوهر الفرد فى صميمه بفعل مخلوق آخر ؛ وليس به منفذ يتيح لأى شئ أن يدخل فيه أو يخرج منه . ولكل جوهر فرد خصائصه النوعية بالنسبة إلى ما يجاوره من جواهر فردية ، إذ لا يوجد فى الطبيعة أبداً كائنان متماثلان . والجوهر الفرد قابل للتغير مثل كل مخلوق : ولكن نفس هذا التغير يتوقف على مبدأ داخلى ولا يأتى من الخارج .

إن صفة الجوهر الفرد هذه ، لمن البروز بحيث تنجم عنها مشكلة : مادام الجوهر الفرد جوهراً بسيطا ، ومادام لا يتضمن شيئا إلا ما يأتيه من دخيلته ، ألا يكون هذا حكما عليه بالعزلة ؟ — كلا ؛ بفضل « الاتساق المقدر » : Harmonie préétablie (١) .

(١) كل شئ فى الطبيعة يفسر بضرورة فيزيقية ، تعرض لنا فى شكل يشغل امتدادا ، لكن لا تستمد مبدأها من شكل يشغل امتدادا . إن المادة الملموسة تفترض روحا ، =

أما كيف يضع ليبنتز هذا التوافق العجيب ، فهذا ماليس علينا أن نعيده هنا ، لأن تاريخ الفلسفة كله يشرحه أكثر مما نستطيع أن نفعل . ولكن فى متناولنا من الآن ما نحتاج إليه لبرهاننا — ما وراء الشعور : L'inconscient — القيمة الجوهرية للذهن : « كل ذهن بما أنه بمثابة عالم منعزل ، مكتف بنفسه ، مستقل عن كل مخلوق آخر ، مشتمل على اللامتناهى ، معبر عن الكون ، فهو دائم ، باق ، مطلق ، كعالم المخلوقات . » — تصوير شاعرى لتكاثر الحياة :

« قد يكون كل جزء من المادة بمثابة بستان عامر بالنبات ، و بمثابة بركة عامرة بالأسماك . ولكن كل فنن فى النبات ، وكل عضو فى الحيوان ، وكل قطرة من أخلاطه ، هى أيضاً بستان مثل ذلك البستان ، بركة مثل تلك البركة .

وبالرغم من أن الأرض والهواء المحجوزين بين نباتات البستان ، أو المياه المحجوزة بين أسماك البركة ، ليست نباتا ولا سمكا : فهى مع ذلك تحتوى نباتا وسمكا ، ولكنها غالباً من نوع دقيق جداً يستعصى علينا إدراكه .

وهكذا ، ليس فى الكون شئ بائر ، مجدب ، أو ميت ، لا خواء ولا اختباط إلا فى الظاهر . . . (١) »

تحقق بمجهودها الوحدة الحقيقية للجوهر . هذه الروح أو الجوهر الفرد ليست ذفة كالذرة — التى تقبل التقسيم دائما ماداست تشغل امتدادا — : ولكنها أيضا ليست مجردة كنقطة رياضية مماثلة لغيرها من النقط . إنها تفترق عن غيرها بمقتضى صفتها ، وتأتى وحدتها بأكملها من نشاطها الموجه ...

فلنفترض فكرة تأثير متبادل مباشر بين بعض الجواهر وبعض فى الكون. من المحقق أن حالة كل جزء من المادة تعبر عن الكون ، أى تتحول بمقتضى تحولات كل عناصر الدنيا : فالقدح الذى أمامى يعبر بصلابته ولونه وكل خصائصه ، عن المسافة الحالية بين الشمس « وكلب الجبار » ، وعن كل مصادر القوة التى يمكن أن يكون لها مفعول حالى عليه . ولكن لو فرضنا أن الحركة ليست « متعدية » ، لو أنكرنا أن الامتداد له قدرة على النقل أو التوصيل - لأن صوره ثابتة جامدة لا حياة فيها - فاننا لانندرك هذا التأثير المتبادل بين الجواهر إلا بصورة غير مباشرة ، بوساطة قدرة خارقة للطبيعة ، وعن طريق عدد لا متناه من الحركات الانبعاثية المنتظم بعضها على بعض . إن ظواهر التأثيرات المتبادلة قائمة : وهى محل دراسة العلم . هذا التصور عن الصلات بين الجواهر هو مايسميه ليبنتز « الاتساق المقدر » . (مقتطف من مقدمة ل پرينان ، فى « مختارات مصنفات ليبنتز » Leibniz, *Œuvres Choisies*, Garnier, *Préface de L. Prenant*. [المترجمان]

(١) المونادولوچيا ، ٦٧ ، ٦٨ ، ٦٩ .

وأخيراً توكيد اتساق سام ، اتساق يدخلنا ، وقد افتتنا به ، فى مجال الحب الصافى .

العلم الجديد

نابولى . الشمس ؛ بهجة الحياة . صيحات ، وضوضاء . وفى الأزقّة المنعطفة، أكثر جماهير الدنيا حركة . حيوية ، وحب استطلاع منقطعا النظير ؛ حركة تثقيف واسعة . محادثات حامية ، اجتماعات ، ندوات ، حيث رجال يحملون بكل خفة أثقال معرفة هائلة ، يثيرون كل المسائل العلمية والفلسفية ، و يمحّضون كل المذاهب ، و يجمعون كل الوقائع . فى نابولى التى تستقبل — لأنها تستدعى — رسائل الفكر الأوربى ، وتعرف كيف توفق بينها وبين عبقريتها ؛ فى نابولى المبتدعة والمليئة بالضوضاء ، والتى تبدو هنا كرمز للقوة والحيوية ، ولد فى ٢٣ يونيو ١٦٦٨ جياسباتستا فيكو .

لقد عرف ذهنه كل أنواع الاجبار ، وعرف كيف يتخلص منها جميعاً . عرف كيف يتفادى خطر أن يكون طفلا إعجازيا ؛ أن يكون تلميذاً منصاعاً لأساتذته ، لا يقسم إلا بأقوالهم ؛ أن يكون أسيراً لاحدى المهن ؛ بل حتى أن يكون سعيداً ، وهو أخطر ما يتهدد من يروم التفكير . قرأ أرسطو ، وجميع الاغريق ، والقديس أوغسطين ، والقديس توما ، غاسندى ولوك ، ديكارت وسبينوزا ، مالبرانش وليبنتز ، دون أن يصبح عبداً لأحد ، قانعاً باختيار أربعة نماذج : إفلاطون ؛ تاسيت ؛ باكون ، الذى رأى « أن العلوم الانسانية والالهية فى مسيس الحاجة لأن تصل فى أبحاثها إلى مدى أبعد ، وأن القليل من المكتشفات التى توصلت إليها مازال فى حاجة إلى تصحيح » ؛ وجروسيوس ، الذى « جمع كل الفلسفة فى نظرية قانونية شاملة ، والذى أقام لاهوته على تاريخ الوقائع خيالية كانت أو محققة ، وعلى تاريخ اللغات الثلاث : العبرية ، واليونانية ، واللاتينية ، وهى وحدها اللغات القديمة العليمة ، التى أوصلتها إلينا الديانة المسيحية . . . » . ولكن مهما بلغ تأثير هؤلاء العباقرة عليه ، فان ذلك لا يمنعه من مراجعة مبادئ معرفتهم من أساسها . إن فيكو قد بقى هو نفسه ، بصورة أليمة ورائعة .

إنه يملك نوعى الذكاء ، النوع الذى يفهم ، والنوع الذى يخلق . إن حميته تجعله يحيد عن الطرق التى اختطها بنفسه ؛ وهو يكثر من المجاز ، ومن الخيال ؛ ينحو نحو التحليل ثم على حين غرة يعمل بوحى من حدس فائق . وهو يقيم براهينه وفقا لأسلم قواعد المنطق ؛ ثم يتعجل فيتعدى إثباته ، بسبب طبيعة ذهنه أكثر مما هو بسبب سعة الموضوع الذى يتناوله . وهو عنيد فتراه يكرر ويعيد ، ضيق الصدر فتراه يسرع ، إذ يعرض لنا النتائج بينما هو لم ينته بعد من المبادئ الأولى ؛ إنه مفتون بالجديد ، بالجرئ ، بالغريب ، بالصحيح ، الذى يزيح عنه أكوام الأخطاء ثم يذيعه على العالم ، هو ، جياسبانستا فيكو . لا يعرف الاتزان الكلاسيكى ؛ وهو بفورته ، وعصبيته ، بل هوسه أيضاً ، يمثل الرجل المتبرم غير الراضى : فهو أبداً لم يثبت الاثبات الكافى ، أو يصحح نصوصه ، أو يحدد تفكيره ، أو يفرض على القراء اكتشافاته العجيبة . إنه متصلب الرأى ، صعب المراس ، غير ودود ؛ وهو متعاظم ، غضوب ؛ يشعر بتفوق عبقرية لا يعترف به معاصروه ، الذين لا يفهمونه ، ولذا فهو يتألم أشد الألم . عندئذ يضاعف مجهوده لاقناعهم ؛ ويشرع فى كفاح ضدهم ، وضد نفسه . لابد من أن ينتهى باشراكهم فى سره العظيم ، سر « العلم الجديد » .

والحق أنه سيكون جديداً ؛ أولا بالمقدرة التى يؤثر أن يستعملها ، وهى الخيال الخالق . إن للنقد دوره وفائدته بلا مراء ، غير أنه لا يتفق تمام الاتفاق مع المغزى العميق للحياة : التى ليست تجرداً ، بل خلقاً متصلا . — وسيكون جديداً بمنهجه ، المنهج الذى يرفضه الناس من حوله ، المنهج التاريخى . غير أن التاريخ ليس عبارة عن روايات المؤرخين : بل هو يطالع فى كل الآثار التى خلفتها الانسانية من تلقاء نفسها على طول طريقها : الشعر البدائى ، اللغة ، القانون ، والأنظمة ؛ كل ما كان كيفية لكيانها . — وسيكون أيضاً جديداً بحركته : لأنه يسير مخالفاً مجرى العصور ، ويبحث عن الحقيقة لا فى أقاصى المستقبل البعيد بل فى مصادر الجنس البشرى . وسيكون جديداً فى ماهيته . إنه معرفة الصيرورة الجماعية ، معرفة الكائن الذى يخلق نفسه ويعرف نفسه فى الوقت ذاته ، ويجد ضمان يقينه فى المماثلة بين الفاعل والمفعول : العلم ، هو خلق الانسانية بالانسانية ، المسجلة أيضاً بالانسانية . « من وسط هذا الليل العميق البهيم ، الذى يغلف الزمن القديم ، الذى نبعد عنه أيما بعد ، يلوح

لنا نور أبدى ليس له غروب ، حقيقة لا يمكن أن تساورنا فيها شكوك : لاريب فى أن هذه الدنيا المدنية من فعل الناس . إذن من المحتمل ، لأن هذا مفيد ولازم ، أن نجد مبادئها فى تبدلات ذهننا . »

***

أيها المسكين ، أيها العظيم فيكو ! إن الناس لم يفهموه ، إنهم لم يكادوا يعيرونه أسماعهم ، كانت أفكاره بالغة الجدة ، تختلف كثيراً عن الأفكار التى قبلها الناس من حوله . كان الآخرون يمجدون النظرى ، العقلى ؛ يخجلون من ماض يبدو لهم مثار فضيحة لمدنيتهم التقدمية ؛ يرون التاريخ كذبا والشعر تمويها ، يطّرحون الحساسية ، تلك المريضة ؛ والخيال ، ذلك المجنون . أما هو فيرفض — بعناد العبقرية — أن يعد جسم الانسانية قطعة تشريحية ، ويصر على البحث فى اختلاج الحياة من جديد . إنه يستعين بالفقه ، والفيلولوجيا ، والصور ، والرموز ، والأقاصيص ، حتى تتوطد بينه وبين الماضى رويداً رويداً أواصر الألفة ، فيصل إلى أغوار الهوات السحيقة ، ليكشف تاريخ تطورنا والصورة المثالية لذهننا ، معاً .

ولم يقبل الناس الغصن الذهبى الذى أتى به . لذلك يمكننا أن نسمع فى « العلم الجديد » Scienza Nuova (١) صيحة نفس ساخطة . إن الانفعال يحاول أن يرفع الجمل المشحونة بالتفكير ، ليساعدها على سهولة التحليق ؛ ويسعى فيكو — طامعاً فى إثبات كل شئ فى آن واحد ، خاشياً من أنه لم يقل الكفاية أبداً ، مستعجلا ، لاهثاً ، ثقيلا — فى أن يقدم لعاصريه المؤلف العظيم الذى يقابلونه بعدم اكتراث . علينا أن ننتظر ثلاثة أرباع قرن ، قبل أن يلقى هذا الكتاب الرائع شعاعه الساطع على الأفق الأوربى .

---

(١) مبادئ علم جديد ، (الطبعة الأولى ، ١٧٢٥ ، الثانية فى ١٧٣٠) .

Principii di una Scienza Nuova intorno alla commune natura delle nazioni (Première édition, 1725 : *Prima Scienza Nuova*. Deuxième édition, 1730 : *Seconda Scienza Nuova*).

الفصل السادس

الحميـــة الدينيـة

كل هذه الأبراج التى تشرف على الأرياف ، وكل هذه الكاتدرائيات التى تتزاحم حولها البيوت فى المدن ، متوسلة إليها أن تتسامق نحو السماء . الشعاع الذهبى للشموع التى تخفق أمام الهياكل ، صوت القسس وجوقة المؤمنين ، دستور الايمان المسيحى ، وأنشودة العذراء ، رنين الأجراس ، وعبق البخور .الكنائس العديدة ، والمعابد ، والمساجد ، وكل مكان يجتمع فيه الناس ليعترفوا بالسر الذى يحيط بولادتهم ، وحياتهم ، وموتهم ، وليعهدوا إلى الله بالتفسير الأسمى الذى لا يستطيع عقلهم وحده أن يتوصل إليه . . .

إن الضرورة الدينية تدافع عن أبديتها .

***

نحو ذلك الوقت ، استشعر المؤمنون تهديد جهود المفكرين الأحرار ، والكفار لهم ؛ وأشارت جمهرة من علماء الدين إلى الخطر المستفحل . وإذا كان بعضهم قد قبل — دون تردد — الكفاح فى الميدان العقلى ، فقد أخذ البعض الآخر ينشد أسلحة أخرى . كانت الذئاب الضارية تتكاثر حول القطيع ، فلم يكن بد من خضد شوكة هجومهم بوسائل دفاعية جديدة : فلنرد على الكفر الصريح بتقوى أشد حيوية ! لن يظفر العدو بمن يسهرون ويتعبدون .

« هذا القرن الجليل الذى يمكن أن ندعوه عصر الفكر ، أو عصر الحب الخالص . . . » هكذا كان يعبر هنرى بريموند فى دراسته للحياة المسيحية فى ظل « النظام القديم » ؛ وكان يبين أن تقدم المذهب الديكارتى ، لم يوهن فى النفوس التقية ، لا حيوية تقبل حقائق الايمان الأساسية ، ولا مزاولة العبادة . وإنى لأود أن أحجز واحداً من كتب الصلوات التى يذكرها دعما

لأقواله ، واحداً بريئاً وجميلا ، « ساعة لعبادة القربان المقدس الدائمة » ، المؤرخ عام ١٦٧٤ . هذه الساعة المقدسة تسجل أوقات الأخطار الداهمة ؛ يستطيع المؤمنون أن يتخيلوا ، باستماعهم إلى دقاتها ، هجوم الأعداء الذين يهدفون إلى تدمير الايمان بقيادة إبليس ؛ كل ساعة تستدعى خيالا يثير الرعدة . منتصف الليل : يخرج أمراء الظلام من كهوفهم ، فى الليل البهيم — وهو الشطر الرئيسى من مملكتهم — ، دون أن يفارقهم العذاب والنيران التى يحملونها فى كل مكان ، ويطيرون فوق الأرض لجمع معاونيهم الأشرار . . . الساعة الخامسة صباحاً : يلقى « بالخبز المقدس » إلى الكلاب . . . ولكن كل إهانة يقابلها دعاء معوّض ؛ وتوقظ دقات هذه الساعة الرهيبة « غريزة جديدة » ، « حمية خفية » ، لم يكن هناك داع لظهورها فى هدوء الأيام الخالية من الكفاح .

حياة حساسة تزداد نموا ؛ لعل هذه هى النقطة الأساسية هنا ؛ هنا تسجل مبادئ علم الدفاع عن الدين المسيحى — وإن كان لا يزال على شئ من الغموض — الذى يستغرق قرنا بأكمله قبل أن يتقوى . أنوار المعرفة ، حسناً : ما من كنيسة عدوة للنور . العقل ، حسنا : ما من كنيسة تزعم أنها فى غنى عن مشاركة العقل . ومع ذلك ، ودون حسبان لصور الكفر الصريح المتطرفة ، وإذا لم نعتدّ إلا بالتبدلات التى تعتمل فى متوسط الضمائر ، — فقد فقد الدين عون قوة ذهنية تريد الانفصال عن الايمان ، والاستغناء عنه ، وتشكيل مثل إنسانى أعلى من دونه . « لاشك فى أن عصرنا عليم مستنير . لقد حققنا تقدما كبيراً فى العلوم وفى الفنون ، سواء لأننا هيأنا لها مبادئ أفضل ، أو لأننا وضعنا لها أدلة وبراهين أقوى . كم من مكتشفات حديثة ، كم من تجارب جديدة ، وضعناها فى وضح النهار ، لنساعد الذهن على التغلغل إلى ماوراء تلك الحدود التى كانت بربرية العصور السالفة تحتجز عندها أنوار المعرفة! — ومع ذلك يحق لنا أن نشك فيما إذا كان الدين قد لقى فائدة كبيرة من كل تلك الأبحاث الجميلة ؛ وفيما إذا لم يكن قد خسر أكثر مما كسب ...(١) » يمكنه أن يعوض ما فقد ، إذا طلب العون فى قوات نفسية أخرى ، مما يحتقرها خصومه أو ينكرونها .

---

(١) اسحق چاكلو ، بحث فى وجود الله ، لاهاى ١٦٩٧ ، مقدمة .

إن البراهين الميتافيزيقية على وجود الله ، أفضل البراهين بلا مراء ؛ ولكنها ليست فى متناول « العاديين من الناس ، الذين يمتثلون لخيالهم . » أما بالالتجاء إلى خيالهم وحساسيتهم ، فيستطيع عالم الدين المسيحى أن يقنعهم بوجود الله . أفلا تثبت آيات الطبيعة وجوده ، وعظمته ، وطيبته ؟ حجة ليست جديدة ، ولكنها تكتسب قيمة جديدة لو أعطيناها لونا خاصا ، لو انقلب البرهان إلى اندفاق عاطفى . عندئذ ندخل فى حالة من الاعجاب تفسر كل شئ فى حالة شاعرية لا يقاومها شئ . أنظر إلى الغابة : « فى الصيف تحمينا هذه الغصون بظلالها من أشعة الشمس ؛ وفى الشتاء تغذى الشعلة التى تحفظ فينا الحرارة الطبيعية . وليس خشبها مفيداً للوقود فحسب ؛ بل هو مادة رقيقة طيعة ، بالرغم من صلابتها ومتانتها ، تستطيع يد الانسان أن تعطيها دون عناء ، الشكل الذى يشاء ، لأكبر الأعمال المعمارية والملاحية . وفوق ذلك ، فان أشجاز الفاكهة ، بميل فروعها نحو الأرض ، تبدو كأنما تقدم للانسان ثمارها . . . » — أنظر إلى المياه : « لو أن الماء كان أقل كثافة لأصبح نوعا من الهواء ، ولأصبح كل ما على وجه البسيطة جافا مجدبا ؛ ولما وجد إلا حيوان طائر ؛ ولما استطاع أى نوع من الحيوان أن يسبح ، ولا أى نوع من السمك أن يعيش ، ولما وجدت أى تجارة للملاحة . لو أن الماء كان أقل كثافة ، لما استطاع أن يحتمل تلك العمائر العائمة الهائلة التى نسميها سفنا ؛ ولغاصت أقل الأجسام وزنا فى الماء . . . » انظر إلى الأجواء وإلى النار ؛ انظر إلى الأفلاك ، وإلى هذا الفجر الذى « لم يقصر مرة واحدة منذ آلاف السنين عن أن يبشر بالنهار ، يبدؤه فى وقت معين ، فى لحظة محددة ومكان محدد . » انظر إلى الحيوان : « فقد أوتى الفيل خرطوما ، لأنه لو كانت رقبته فى مثل طول رقبة الجمل لكانت تثقل عليه كثيراً نظراً لضخامتها . . . (١) »

قليلا من الوقت ، وسيأتى نيوفنتجت Nieuwentijt ، وسيأتى الأب بلوش Pluche اللذان سوف يثبتان وجود الله بآيات الطبيعة أمام جمهور واسع : ومن بعدهما برتردان دى سان بيير ، ثم شاتو بريان .

---

(١) فنيلون ، إثبات وجود الله ، مستمدا من معرفة الطبيعة ، ١٧١٣ .

***

عند هذه النقطة من طريقنا ، وعلى عتبة آخر ملاذ ، حيث يتحمس رجل الشعور ، فلنتذكر « جو تفريد أرنولد » ، حاملا فى يده كتابه « تاريخ مقسط للكنيسة والالحاد » . إنه يقول لنا إنه تاريخ مقسط لأن الذى كتبه رجل لا ينتمى إلى مذهب من المذاهب ، ويستعمل المنهج التاريخى لا اللاهوتى . وإنه عام ، لأنه لا يقبل أن توجد كنيسة واحدة ، وإنه سيتكلم عن كل الكنائس التى تبشر بالايمان بالله وبالسيد المسيح . وإن كتابه يريد على الأخص أن يكون تاريخا مجيداً للالحاد .

والواقع أننا إذا صدقنا قوله ، نخطئ فى شأن الملحدين ، الذين لا يفهمهم الناس ويفترون عليهم . الملحدون ، اسم يطلقه أصحاب المصالح على من يضرون بمنافعهم ونفوذهم . إن أصحاب المصالح يباهون بأنهم أرثوذكس : إلا أن الأورثوذكسية ليست الايمان . قبول العقائد والصيغ بدون تمحيص ، والخضوع للسلطات ، وعد الايمان عملا فعالا opus operatum : تلك هى الأرثوذكسية ، التى ليست فى الواقع إلا « عقلية » فارغة ، تجهل التجارب الدينية ، واليقظة والبعث .

إن الملحدين الحقيقيين ليسوا أولئك الذين يخاطرون بأن يخطئوا ، مع سلامة نيتهم ؛ بل هم على النقيض أولئك الذين يعيشون كالوثنيين ، رافضين الخضوع لنفوذ الله ؛ أى الأنانيون ، والدجماطيقيون ، وغير المتسامحين . . . هكذا يتكلم فى عام ١٦٩٩ جوتفريد أرنولد ، العالم ، المتمرد ، المتصوف : أولئك الذين تعدهم عادة ملحدين ، هم المسيحيون الحقيقيون ؛ أتباع المسيح ، الذين يطهرهم الألم ، وتزكيهم المحبة ؛ وأولئك الذين نسميهم الأورثوذكس ، ذوو القلوب الجافة المجدبة ، هم الملحدون .

***

فلندخل الآن تحت قيادته ، إلى دائرة النفوس الغيورة .

فى عام ١٧٠٩ ، طردت آخر الراهبات اللواتى كن لا يزلن مقيمات ببور-رويال ، وفى عام ١٧١٠ دمر هذا الدير . وسيقضى على مذهب جانسينيوس

قضاء مبرما ؛ إن المذهب الذى أزعج كنيسة فرنسا منذ سنوات عديدة سيغلب أخيراً على أمره : ubi solitudinem faciunt, pacem appellant أينما حولوا إلى خراب قالوا إنهم أتوا بالسلام(١) . — لكن لا ، فان هذا المذهب ينتشر فى الخارج ، ويكسب أشياعا شيئاً فشيئاً ، وتبقى له مراكز فى لوفان ؛ وفى أترخت حيث تؤوى كنيسة عنيدة المنفيين والمبعدين ؛ وفى مدن مختلفة فى ألمانيا ؛ وفى فينا حتى فى البلاط الامبراطورى ؛ وفى بيمونت ولمبارديا ، وليجوريا ، وتوسكانيا وحتى فى روما ؛ ويقوم أتباع جانسينيوس بدعاوة واسعة فى إسبانيا . وفى فرنسا تجدد العراك ، عنيفاً كأول يوم ، على إثر إعلان القرار البابوى *Bulle Unigenitus* (٢) فى عام ١٧١٣ . إذ ينشر كيتيل القسيس بالأوراتوار كتابا عن « الأخلاق الانجيلية » ؛ ويحرم البابا مائة قول وواحد من هذا الكتاب ؛ وكأنما كان ذلك إيذانا بمعاودة القتال ؛ فأخذ المعارضون ، والمؤيدون ، والموفّقون يتجادلون ، وسوف يتجادلون خلال سنين طوال . وسيظهر عن قريب المتعصبون المتشنجون Les convulsionnaires (٣) — وسوف تحدث معجزات ، فى أثناء المواكب الاحتفالية ، وعلى مقابر القديسين ؛ وفى هذه المرة ستبلغ الاضطرابات مبلغ الفضيحة . وإذا كان لمذهب جانسينيوس عنصران أحدهما لاهوتى والثانى أخلاقى ، فان الأول سوف يضعف مع مر الزمن ، بينما يزداد الثانى قوة . إن الحسرة والقلق النفسانى ، والاستراية فى شأن السلام ، وذكرى الاضطهاد الأليمة ، والايمان بالآيات المنتقمة ، لا تتبدد بارادة الملك ولا بقرارات روما . لم تعد الجانسينية مذهباً ، بل أصبحت على مر الزمن روحا ، روحا عنيفاً صارما ، يسرى فى مواجهة سريان التهوين فى العقيدة والأخلاق .

وكان البروتستنت السفينيون Camisards (٤) ، الذين يتعقبهم البوليس

---

(١) كلمة للشاعر تاسيت فى « حياة أجريكولا » على لسان جالجاكوس البطل الكلدانى . تطلق على الغزاة الذين يبررون ما يسببون من خراب بحجة المدنية . [المترجمان]

(٢) قرار أعلنه البابا كليمان الحادى عشر بادانة مذهب جانسينيوس . وقام على إثره عراك عنيف بين أتباع جانسينيوس واليزويت . [المترجمان]

(٣) صفة لأتباع جنسينيوس المتعصبين ، فى القرن الثامن عشر ، الذين كانوا يقعون فى تشنج عصبى لفرط حماستهم الدينية . [المترجمان]

(٤) كاميسار : لقب لبروتستانت السيفين الذين تسلحوا عقب فسخ أمر نانت . وكانوا يرتدون صدرية تسمى Camiso ومن هنا هذا اللقب . [المترجمان]

الراكب ، ويعذبون إذا وقعوا فى قبضته ، شهداء الايمان — يقعون من باب أولى فى فوران عاطفى مميت ، يزداد غلواً حتى يصل إلى درجة الوهم . فلننظر إلى أحد زعمائهم ، ابراهام مازل الذى خلف لنا مذكراته أو بمعنى آخر اعترافه . « قبل أن أتناول السلاح ببضعة أشهر ، وقبل أن تدور بخلدى أية فكرة ، حلمت أنى أرى فى بستان ثيرانا ضخمة سوداء ، سمينة جداً ، ترعى فى كرمب البستان . وأمرنى شخص لا أعرفه أن أطرد الثيران السود إلى خارج البستان ، فرفضت أن أفعل ، إلا أنه لما أصر وكرر أوامره أطعته وطردت الثيران . وعلى إثر ذلك نزل على الروح القدس ، وأمسكنى كالعادة مسكة رجل قوى ، ثم فتح فمى وجعلنى أقول فيما أقول إن البستان الذى رأيته يمثل الكنيسة ، وإن الثيران السود السمينة هى القسس الذين يلتهمونها ، وإنى إنما استدعيت لتنفيذ هذه الرؤيا . وقد أوحى إلى أكثر من مرة أن أستعد لحمل السلاح للكفاح بجانب إخوانى المضطهدين ، وإنى سأحمل الحديد والنار ضد قسس الكنيسة الرومانية وسأحرق مذابحهم . » بالوحى ، يعقدون اجتماعات فى الغابات ، وينزل عليهم « الروح » بصورة مرعبة حتى إن الرعدة التى تهز أجسامهم تلقى بالخوف والذعر فى قلوب من يشاهدهم . بالوحى ، يحملون السلاح ، ويسيرون ، ويهاجمون ، ويتفرقون . بالوحى ، يحرقون الأبرشيات ويقتلون الخوارنة . ولما قبض على مازل سجن فى برج كونستانس فى أيج — مورت . وقد نشر أحد أحجار البرج ، ليهرب ، و « كان يستشعر وحى الروح كلما اشتغل بهذا العمل . »

ولعل حالة إيلى ماريون تحيرنا أكثر . « فى اليوم الأول من هذا العام ١٧٠٣ ، أسبغ الله على شرف زيارة روحه ، ومن أول وحى نطقت به ، قيل لى فيما قيل ، إن الله قد اختارنى منذ كنت فى بطن أمى لتمجيده . » إن إيلى ماريون هو « المختار » ، البشير بعهد المسيح المجيد . فلنتذكر — دون أن نتبعه فى معاركه ، وفى هزيمته — الطريقة التى انتهجها فى معيشته فى لندن ، حيث التجأ فى عام ١٧٠٦ . إن الأوهام تتملكه ، فيتنبأ ، وينزل عليه « روح الله » ، ويروعه ؛ وينفجر ضد ضعاف الايمان والقسس أكثر مما يرعد ضد الملحدين والكفار . وكان قبل ذلك قد فضح قسس جنيف ، الذين أبوا أن يصدقوا بقرب مجىء المسيح . « إن هذا المجىء الثانى لبمثابة الشمس لهم

لا تستطيع عيونهم أن تحتمل شعاعها إذ يعميهم . فليحذروا أن ينبذوا كما نبذ اليهود من قبلهم ! » وفى لندن يرعد ضد القسس الفرنسيين ، ضد الانجليكان ، وضد الجميع ؛ وهكذا تبدأ قصة عجيبة أليمة . أولئك « الأنبياء » الكاميساريون وقد طردوا من الكنائس ، وأرذلتهم الجماهير ، وقبض عليهم ، وقدموا للمحاكمة، وأدينوا ، يستشعرون لهباً يزداد اضطراما على الدوام . وهم يكسبون أنصاراً من الانجليز ، لأن مرضهم معد ؛ وتغتنى جماعتهم بطائفة إنجليزية هيستيرية . وذات يوم يعلنون أن النهاية قد أوشكت ، وأن النار سوف تلتهم « المدينة » بما فيها من كفار : ولن ينجو إلا المؤمنون ؛ ولكى يتعرفهم الملك المدمر ، عليهم أن يرتدوا شريطاً أخضر إما فى ذراعهم وإما على رءوسهم . ومرة أخرى يتنبأون أن اضطهاد « الأنبياء » سيتوقف قبل مرور ستة أشهر ، وتتأيد حقيقة رسالتهم : وتمر الستة الأشهر دون حدث جديد . ومرة أخرى يزعمون قدرتهم على بعث الأموات . وينظر الشعب الانجليزى مندهشاً إلى أولئك المتحمسين ، أولئك المجانين ؛ ويظهر حيالهم فى بادئ الأمر أمارات فروغ الصبر ، ثم عنفه البارد . وحكم على إيلى ماريون بالحناك العلنى pilori ؛ وقد كتب على ورقة معلقة فوق رأسه : « إيلى ماريون ، المعترف بادعائه أنه نبى حقيقى — وهذا كذب وكفر — وبأنه نشر وأعلن كثيراً من الأقوال بدعوى أن روح الله قد أملاها عليه أو أوحى إليه بها ، بقصد إثارة الرعب فى رعية الملكة . » وأخيراً سيغادر إيلى ماريون البلاد ، متبوعا ببعض المخلصين الذين سيظلون ملتصقين به فى عناد ، وستنتقل الجماعة الصغيرة من بلد إلى بلد حتى الآستانة ، حتى آسيا الصغرى ، مبشرين دائما ، متنبئين دائما ، مهددين دائما ؛ مضطهدين ، مسجونين أحيانا ، ولكن حاملين فى أنفسهم شعلة جنونية ، زاعمين أن يجعلوها تشتعل فى كل الشعوب : إنها بريق الضوء النازل من السموات ليكشف فى ليل شعوب الأرض عن الفساد الموجود فى ظلماتها . . .

***

إن قدرية سبينوزا تمثل — من وجهة نظر معينة — صلابة العقل . ومع ذلك فهنالك شئ من اللذة فى الاستغراق ، والذوب فى « الكائن » الشامل : إنه شعور ، بل إحساس تقريباً . هذا الانضمام إلى النظام الذى يسود الدنيا ،

الذى هو الدنيا ، وهو الله ، وهو كل شئ ، يجب أن يكون واعياً وإراديا ليكون له أقوى الفعال : ولكنا نستطيع بميل يسير أن ننزلق من هذه الصفة الارادية إلى إذعان سلبي ، يصبح استسلاما . فلا عجب إذن إذا رأينا تصوفا يتولد من « علم الأخلاق » ، وينتشر فى هولندا وفى ألمانيا . — ولكنا لازلنا ، مع أولئك ، الاسبينوزيين ، على مبعدة من الدوائر الأخيرة ، أكثرها حمية .

مادمنا نتعى على قسس اللوثريين نفس الرذائل التى نعوها على الكاثوليك ؛ ماداموا قد أضحوا عبيداً للحرفية لا للروح ؛ مادامت لا تحدوهم شفقة ولا إيمان ؛ وماداموا ينتفعون بالمال من مباشرة عبادتهم ، بل إنهم يسمحون بمشترى العقاب بالنقود ؛ ومادامت مواعظهم ، بدلا من أن تكون منابع للحقيقة وللحياة ، قد أصبحت خطباً محفوظة عن ظهر قلب ؛ ممزوجة ببعض الفكاهة الشعبية ، ولا صلة لها مطلقاً بعظات كلام الله : فقد تولد ، ضدهم ، وانتشر فى ألمانيا ، مذهب « الخشوعية » ، دين القلب . الخشوع ، القلب ؛ هاتان الكلمتان ستترددان كثيراً بقلم ولسان الرجل الذى أتاح للحساسية الألمانية ، المكبوتة منذ أمد طويل ، أن تظهر إلى وضح النهار ، « فيليب يعقوب سبنر » . كان قسيساً فى فرانكفورت لما واتته فكرة تأسيس « مدارس التقوى » ، فى عام ١٦٧٠ : ليس واجب القسس أن يجادلوا ، وأن يتصايحوا ، بل هو على النقيض أن يذكوا الحياة الباطنة ؛ وعلى ذلك فقد كان يجمع فى المساء ، مرتين فى الأسبوع ، ذوى الارادة الطيبة لقراءة الكتاب المقدس ، والتعبد ، وليتركوا الله يؤثر فى نفوسهم . وكانت هذه هى الخطوة الأولى ، وقام بالثانية لما نشر فى عام ١٦٧٥ *Pia desideria, oder herzliches Verlangen nach gottgefalliger Besserung der wahren evangelischen Kirche* (تمنيات صالحة ، أو رغبات المؤمنين القلبية لاصلاح الكنيسة الانجيلية الحقيقية) . عندئذ اتسع نشاطه ، وشمل القسس ، والمؤمنين ، يدعوهم إلى العودة إلى إيمان حى فعال ، إلى إيمان قوامه المحبة . فى ١٦٨٦ ينتقل إلى درسدن ، ويصبح واعظاً فى البلاط ، ومرشداً لمنتخب ساكس ، وعضواً فى مجلس الكرادلة الأعلى : وقد لا يكون لهذه الألقاب قيمة ، لو لم تسمح لنا بتقدير مدى نفوذه ونجاحه : فالطلبة والنساء يستمعون إلى كلمته المستحرة والخطيرة فى نفس الوقت ؛ وتجتمع الدوائر — بوحى منه — لدراسة الكتاب المقدس ؛ وأصبحت كلمة « الخشوعى » Piétiste

مجيدة بعد أن كانت مرذولة . كان أوجست هرمان فرانك خشوعياً ، ولما كان عليه أن يعظ بالايمان ، وأحس أن الايمان يعوزه ، وقع فى اليأس ، وجثا ، متوسلا إلى الله أن ينقذه من حالته التعسة : فيلهمه الله ، وتكون رسالته أن يعمل على إنارة الآخرين بدوره . والأمراء ، والنبلاء ، الذين ينشدون سلامهم بأنفسهم خشوعيون أيضا ، وكذلك البورجوازيون ، وعامة الشعب ؛ إن ألمانيا تفئ إلى الايمان .

وسوف تسرى العدوى على الدوام ، العدوى التقية . سيغادر سبنر Spener درسدن قاصداً برلين ، ويكسب منتخب براندبرج ، وعندما يحول هذا الأخير أكاديمية هال إلى جامعة ، فى سنة ١٦٩٤ ، سيصبح سبنر موجهها ومحركها . وهكذا ترتفع قلعة « الخشوعية » ، محوطة من كل جانب بأعمال مسيحية . ماذا تمثل إذن تلك القلوب المتحمسة ، والمنتصرة هنا ؟ أولا ، أثراً باقياً ، أثر بوهم Boehme المتصوف ، الحاضر فيهم على الدوام — ثم رفضاً ، تمرداً على الميل إلى تبلور وإلى تبريد موجة الحياة الدينية التى تنبثق فى نفوسهم . — وبصورة أعمق ، فكرة أن المنهج التحليلى والبحث المنطقى لايمثلان كل المعرفة ؛ وأن الوضوح ليس حتما كل الحقيقة : إنها تحمى الحدس ؛ إنها تحفظ إمكان المعرفة المباشرة ، إمكان الاتصال الكلى بمنبع الحياة الأبدى — الإنية Le Moi ، وفى الإنية ، قوة القدرات العاطفية ، وهى أكثر شخصية ، وأكثر فردية من القدرات الأخرى . — التمسك بقوام أولى Substratum ، تهدده صور التمدن الدينى المعتادة فى كماله وسلامته .

إن فوارق الشعور المتعددة تغنى حياتهم . إذ يستشعرون نضوب عواطفهم ، وإجدابهم ، وضياعهم ؛ ويحسون ضيق من يصيح فى الصحراء بلا جدوى : هل هناك أشد إيلاما من انتظار طويل للغفران ؟ ثم تحين ساعة الاعتراف ، والفضفضة ؛ وتلك الضربة التى تصدمهم : المعجزة ، الإلهام ، الوحى المباشر . حينئذ تكون لذة حب سماوى لا نهائية ، ذوب المخلوق البشرى فى « الكائن » الذى يعلم ، والذى يريد ، والذى يعطى للحياة طعماً « سبقياً » من الأبدية . فما جدوى البحث من الآن فصاعدا ؟ وما فائدة الفلاسفة ؟ أو حتى اللاهوتيين ، أو حتى شراح الكتاب المقدس ، الذى يجب أن يفهم من نفسه ، ماداست كلمة الله قد سجلت فيه دون ألغاز ؟ Unum est necessarium : شئ واحد

لازم : الاتحاد بالله . . .(١) — هنا لا يزال شئ من الحركة باقيا ؛ وسوف يلغيه أنصار الركونية .

***

كيف نفسر النزاع الذى أوقع بين أشهر أسقفين فى كنيسة فرنسا ، بوسويه وفنيلون ، والذى دفعهما إلى تبادل اللوم والاتهام ؛ إلى الالتجاء إلى روما حتى حكم على أحدهما بالادانة — إلا إذا وجدنا فى هذا الجدال الكبير حالة خاصة لميل عام ؟ كان مذهب « الركونية » Quiétisme (٢) صورة من صور التصوف التى كانت تزعزع أسوار الكنائس فى كل مكان ، باسم الشعور المنطلق .

أى أحلام عذبة لم يتعلل بها فنيلون ؟ إنه يتأهب للرحيل ؛ اليونان مستعدة لاستقباله ، السلطان يجزع فيتراجع ؛ وكان يرى — وهذه هى ألفاظه بالضبط — الشقاق يزول ، والشرق والغرب يتحدان ، وآسيا التى تئن حتى ضفاف الفرات ، والتى ترى بزوغ النهار بعد ليل طويل . أو كان يتخيل أرضاً من أراضى الأحلام ، أو « أندلسا » مثالى الجمال ، ليصفه بألفاظ كلها إعجاب : شتاؤه دافئ ، وصيفه غير محرق ، السنة بأكملها كأنها زواج سعيد بين الربيع والخريف اللذين يبدوان كأنما يشدان على أيدى بعضهما ؛ تربته من الخصوبة حتى إنها تفئ محصولا مزدوجا ؛ وأشجار الرمان والنغار والياسمين تحف بالطرق العبقة . أو كان يبنى بيديه المدينة الخالية من العيوب ، « سالانت »(٣) :

---

(١) ... Agir en Dieu يشرح بول هازار هذا التعبير بأنه يعنى « الذوب فى الله » ، أى الاتصال فى الفكر بالله . أنظر الفكر الأوربى فى القرن الثامن عشر ، الجزء الأول ، باب « السعادة » ، ص ٢٤ . [المترجمان]

(٢) الركونيه Quiétisme : مذهب تصوفى ، يرى أن الكمال المسيحى فى محبة الله ، وفى عطلة الروح عن الحركه . وكان لهذا المذهب ممثلون فى كل عصر ، وأشهر رؤسائه القسيس الاسبانى مولينوس Molinos ، الذى نشر فى منتصف القرن السابع عشر كتابا فى التصوف ، جعل فيه الدين فى صورة مثالية حتى لم يعد يفهمه العامة . وقد قبل فنيلون هذا المذهب وتكلم عنه فى مؤلفاته ، وكانت حركاته هذه ولا سيما وهو أسقف « كامبرى » وربى ولى العهد - سببا فى نزاع شديد بينه وبين بوسويه الذى رأى أن هذا المذهب يفقد المرء شخصيته ولا يترك له أى قوة أو إرادة ليحارب الشر . [المترجمان]

(٣) سالانت : انظر تيليماك ، الكتاب الثامن . [المترجمان]

حيث لا بؤس ولا رذيلة ؛ إن الأراضى الاسترالية لتكاد تستطيع أن تقدم لأبناء الانسان سعادة مماثلة . ففى سالانت يسود السلام ، والعدل والنظام الاجتماعى ، والغزارة ؛ حيث تدخل الثروات كمد البحر ، وتترك ثروات أخرى فى محلها عند الجزر . ولكل صعوبة « علاج يسير » . ضربة عصا سحرية وكل شئ يتغير فى الحال : سكان الحضر سعداء ، والقرويون سعداء ، والنساء سعداء ، وكذلك الأطفال ، والكهول . « كان الكهول ، وقد ذهلوا لرؤيتهم ما لم يجرأوا على أن يتمنوا رؤيته بعد مثل هذا العمر الطويل ، يبكون لفرط الغبطة المشوبة بالحنان ، رافعين أياديهم المرتجفة نحو السماء . . . » وفى الخارج يسود السلام . فلصد هجوم الأعداء ، يكفى الوقوف فى وسطهم ، وإلقاء خطبة عليهم . عندئذ يلقى الجنود سلاحهم ، ويتعانق الجميع ، فى بكاء ودموع .

ذلك أن فنيلون يهوى الدموع ؛ إن أبطال « تليماك » يذرفون أنهاراً ، بل سيولا من الدموع ، تغرق الكتاب . كاليبسو ، أو كاريس وفينوس ؛ تليماك ،منتور ، فيلوكليس ، وإيدوميني ، يسكبون كثيراً من تلك الدموع الغالية . إنه يريد أن يكون محبوباً ، رقيقاً ، حنونا . إذ يقول فى « رسالته عن مشاغل الأكاديمية » : أفضل المحبوب ، عن المذهل ، والعجيب ؛ ويقول فيه أيضاً إنه يود أن يسمح فى اللغة بكل ماينقصنا من تعبير ، يكون جرسه رقيقاً : فيجيبه مدير الأكاديمية « الرقة التى تمتازون بها . . . » . كان محسنا ، كريماً ؛ ولقد عرف وباشر بسليقته كل طرق افتتان القلوب ، ما تقاوم منها وما تسلم .

ولكنه كان يعلم أيضاً أن خياله كان طموحا ، ملحاً ، لا يقنع بالتحليق فى « ما وراء الواقع » . كان عليما بقدرته على أن يكون متكبراً ، متجبراً ، بل كانت تكمن فى نفسه قوات حية من الحقد . كم كان بعيداً عن الكمال ! كم كان تعساً بهذه المتناقضات ! نفس معذبة ، قلب كان فريسة للحزن ، وللضجر ، ولذا كان يتطلع متألما إلى « أغوار لا تشرح » فى كيانه الأخلاقى ؛ فيحس عندئذ شعوراً من الاشمئزاز ، لأنه كان يرى فيه أفاعى — على حد قوله .

إنه يتوق إلى مياه نقية تستطيع أن تروى غليله ؛ ويتحرق إلى الغفران الذى قد يمحو نقائص الدنيوى ، الدساس ، الطموح ، الممثل ؛ ويتمنى كمالا

ليس فى مقدوره أن يصل إليه بلا عون ؛ إنه يتألم من قلقه . هنا ولا شك ، سر نفوذ مدام جويون Guyon : إنها لم تنل هذه السيطرة العظيمة عليه ، إلا لأنه كان يشعر بحاجته لأن يصهر و يمحو الأغلال التى تثقل كاهله فى نار التصوف . كانت مدام جويون قد كسبت طالبات مدرسة سان سير Saint-Syr (١) ، وكبار السيدات ، و مدام دى مانتنون نفسها : كسب سرعان ما ضاع ، لأن هذه النفوس تتدارك خطأها عند أول إشارة . ولقد حاولت أن تكسب بوسويه : مهمة عسيرة جداً ، فانها لم تفلح حتى فى استثارة أى رغبة عنده ، لأن إيمانه لم يكن فى حاجة إلى هذا العون المشتبه فيه . إن هذه المرأة ، بصفتها امرأة ، هذه السيدة التى « لديها فكرة كبيرة عن نفسها » ، التى تباهى بأنها تتنبأ ، وتواتيها الرؤى ، وتأتى بالمعجزات ، — كانت موضع كراهيته . عندما تدعى أن الدعاء ينبغى أن يكون فناء كلياً للنفس ، وأنها لا تستطيع أن تطلب شيئاً من الله ، ولا حتى عفواً عن خطاياها : انتهى أمرها ، إن مدام جويون ملحدة ، لن يستمع إليها بوسويه . أما عند فنيلون ، ذى القلب المهموم ، ذى القلب المحموم ، ذى الروح التى تبلغ من النبل أن تدرك نقائصها ، ولكنها لا تستطيع لاستغراقها فى الحياة أن تتخلص منها — عند فنيلون ، كانت مدام جويون تأتى بمذهب الحب النقى .

الوسائط بين الله والانسان ، تلك الوسائط التى يبدو بعضها كثيفاً غليظاً ، والبعض الآخر دقيقاً وغير مادى تقريباً ، ولكنها مع ذلك تكوّن فواصل ، يقل احتمالها كلما وصل الانسان إلى هذه الدرجة من الرغبة حيث تبدو له عندها أقل عقبة — مثل لزوم حركة أو وجوب دعاء — أقوى العقبات ؛ هذه الوسائط بين الله ومخلوقه تريد مدام جويون أن تقضى عليها . ولما كانت حديثة فى المذهب ، وقد تملكتها رغبة شديدة فى توجيه الضمائر ، فانها تقول لنا كيف ينبغى أن نعمل لكى نصل إلى هذه الدرجة العالية من الروحانية . فهى تصيح أن تعلموا العبادة ، تعلموا الدعاء : يجب أن تعيشوا على الدعاء ، كما يجب

---

(١) مدرسة أنشأها لويس الرابع عشر بمعاونة م مدادى مانتنون لفتيات الطبقة النبيلة . [المترجمان]

أن تعيشوا على الحب . تعالوا ، أيتها القلوب المسغبة ، تعالوا أيها المعذبون المساكين ؛ تعالوا ، أيها المرضى ؛ تعالوا أيها الخاطئون ، بالقرب من ربكم . تعالوا ، يا من لكم قلب .

إنك تضع نفسك بين يدى ربك ، بفعل من أفعال الايمان الحى ؛ تبتدئ بقراءة بعض نصوص من كتب الدين لا للتفكير والاستدلال بل لحصر الذهن فحسب . ثم تستغرق فى نفسك بعمق ، وتجمع كل حواسك فى دخيلتك . وحين تتأثر عاطفتك ، دعها تسترح فى هدوء وسلام . فلو أنك حركتها أكثر ، لحرمت روحك من غذائها ؛ يحسن أن تهضم ما تتذوقه فى شئ من الراحة المملوءة بالمحبة والثقة .

وتتولد العادة ؛ فتبتدئ الدرجة الثانية من التعليم ، الدعاء فى بساطة . ولا يلزم إلا قليل من الجهد ؛ ويزداد الاحتمال ؛ يكون الشعور بوجود الله أيسر ، وكأنه أقوى . ولا سيما إذا أفاءت الروح على الدعاء حباً صافياً ، متجرداً من كل ما لايكون الحب ذاته ، وبالتالى حباً خالياً من التغرض . لا يجوز أن تطلب الروح شيئاً ، لا يجوز أن تقوم بالدعاء لتحصل على شئ من الله ، لأن الخادم الذى لا يخدم سيده إلا إذا كان يكافئه ، لا يستحق المكافأة .لاابتهال، بل انتظر كل شئ . دعاء يكاد يكفى للاستغراق فى التقوى : ليس الدعاء إلا شعلة حب تصهر الروح وتذيبها .

إن المسيحى الذى يرتقى الجبل المقدس يصل عندئذ إلى الاستسلام : تجرد من كل عناية بالنفس ليسلم قياده كله لله . لا استدلال ولا تفكير . اطراح كل إرادة ، حتى ولو كانت طيبة . عدم اكتراث بكل شئ ، سواء للجسد أو للروح ، بالخيرات الزمنية والأبدية ؛ ترك الماضى فى غياهب النسيان ،والمستقبل للعناية الالهية ، وإعطاء الحاضر لله . فمن يستسلم له تمام الاستسلام فسرعان مايجوز الكمال .

عندئذ تختفى الصفة الذاتية الخاصة للفرد ، منشأ كل خبث . إذ يبعث الله أمامه حكمته تعالى ، كما ستبعث النار على الأرض لتفنى كل نجاسة فى الانسان . النار لا تبقى ولا تذر ، ولا شئ يقاومها إلا وتفنيه . والحكمة الالهية مثلها ، تفنى كل نجاسة فى المخلوق لاعداده للاتحاد الالهى . وإنه لاتحاد يجل عن الوصف. وإذا نحن أردنا ، بالرغم من ذلك ، أن نعبر عنه بالألفاظ ، يمكن القول إننا

تشعر بمحبة علوية تغرقنا فى السعادة . إن فى التنازل عن الأنية ، فى استلاك اللانهائى ، للذة يستحيل على أى متعة بشرية أن تعطينا فكرة عنها . لافراغ بل غزارة . فالتنازل هو الكسب ؛ التخلى ، هو غنم كل شئ . ليس علينا إلا أن نحب .

هكذا تقدم مدام جويون ، ملخصة لأول مرة بياناتها المسهبة ، إلى من يريد الاستماع إليها « وسيلة مختصرة وسهلة للدعاء ، يستطيع الجميع أن يباشروها بكل يسر ، وهكذا يصلون فى قليل من الوقت إلى كمال رفيع » (١٨٥٦) . ولما كانت جريئة ، دساسة ، فقد كانت تحلم بمشروع تجديد دينى واسع . لم تجد أبداً ، لا فى دوفينى ، ولا فى أثناء تجولها فى طرق بيمونت مع معاونها الأب لاكوسب ، وهى تبشر ، وتنشر مذهب مولينوس ؛ ولا فى باريس ، لم تجد أبداً رجلا يقدر على أن يضفى على مذهبها السعة والانتشار . كانت تتمنى أن يكون فنيلون المصباح المشتعل الساطع الذى يضئ الكنيسة المجددة ؛ وأن يبين كيف يجب أن نتعبد « للسيد » فى تناول القربان ؛ كيف يجب أن نكافح الشيطان ؛ وجماع القول ، أن يوطد تحت قيادته سلطان المحبة الالهية .

ولعلها قد تكون فى نظر الآخرين امرأة مغامرة : أما عنده هو فكانت المرشد الذى يدفعه نحو الكمال . كم كان من الصعب عليه أن يتخلى عن منطقه ، المنطق البالغ الرقة والفطنة ! وأن يتنازل عن حكمته الانسانية ! عن كل تلك العناصر الدنسة التى يناقض وجودها إرادته الطيبة ويؤذيها ! ولكن الحمية الصوفية التى كانت تذكيها هذه المرأة ، كانت تقضى رويداً رويداً على هذا الدنس . « أكن لك إخلاصا متزايداً ، لا يفوقه إلا إخلاصى لله ، وهو وحده عليم بمقدار شكرى لك . » وكان عرضة لنكسات ، وغفلات ، واندفاعات إرادية ، وللكراهية ، ونفاذ الصبر ، والكبر ، ونوبات من الاجداب ، باطناً بالنسبة إلى الدعاء ، وظاهرا بالنسبة إلى الصلة بالناس : فكانت تقوّمه ، وتدفعه إلى التقدم ، وتزيل عنه هذه العوائق . فكان يستشعر تجدداً من السذاجة والبراءة : « يا للسعادة اللانهائية فى تصاغرنا إلى غير شئ ! » ؛ وكان يشعر أنه يصير إلى ما كان يود أن يكون ، ، فانياً ، محروسا ، مثل طفل صغير . عندئذ كان ينظم أشعاراً ، على منوال الأغانى :

O pur amour, achève de détruire
Ce qu'à tes yeux il reste encor de moi.
Divin vouloir, daigne seul me conduire,
Je m'abandonne à ton obscure foi . . . (١)

C'est peu pour toi que n'avoir plus de vie
Et qu'abîmer ce moi jadis si cher . . . (٢)

ولم يكن هذا بكاف ؛ فقد كان لا يزال باقياً فى هذه الأشعار شئ صريح ، واضح ؛ فقد كان يلزمه بعض التتمة ، والمهمة ، كالأطفال . فكان يعود دائما إلى هذا : أى متعة فى أن يكون المرء مخلوقا يزعم أنه مدين بوجوده لنفسه ، ملئ بالخبث ، قلق ، تعس ، معذب على الدوام — ولا يصبح الآن ، إلا طفلا صغيراً ، نائما على ذراع « الأب » ! وكانت تكتب له : « لابد من أن تصبح يوما بسيطا مثلى . كلما كنت حكيما ، كنت بسيطاً وصغيراً ، بفرض أن الايمان هو أن يقلع المرء عن أن يكون رجلا كبيراً ليصبح طفلا صغيراً . » ويكتب هو لها : « إنى أفتح لله كل استداد قلبى ، لأتلقى روح الطفولة والصغر ، هذا الذى تتحدثين عنه . » — « يخيل إلى أن الله يريد حملى كطفل صغير ، وأنى لا أستطيع أن أخطو خطوة وحدى ، دون أن أتعثر : وعلى شرط أن ينفذ إرادته فى نفسى ، وبنفسى ، فسيكون كل شئ حسناً ، مهما حدث . »

سيكون كل شئ حسناً . حتى الاضطهادات ، حتى التفسيرات الخاطئة لمذهب مدام جويون : لأنه كان يعدها تفسيرات خاطئة ، ولم ير فى مدام جويون شيئا يزيد عما نراه فى أكبر المتصوفين الذين اعترفت بهم الكنيسة : القديسة تيريزا قديسة يسوع ، والقديس يوحنا قديس الصليب . إلا أن قوما لم يجبلوا على تذوق عذوبة الحب الصافى ، قابضين أيديهم الغليظة على تلك الزهرة الرقيقة للتقوى الجليلة ، كانوا يزعمون أنها ليست جديرة بمذابح المعابد . حتى الحكم المدين ، الصادر من روما بعد معارك طويلة ، لم ير فيه إلا استحانا ؛ فالتصاغر ، وقبول هذا الحكم ، وإبلاغه فى خطاب رعوى إلى المؤمنين فى أسقفيته ، لم تكن عنده إلا وسيلة للقضاء على رجل الجسد ، وقبول التضحية

(١) أيها الحب الصافى ، أنجز تدمير — ما تراه باقيا من نفسى — أيتها الارادة الالهية — اقبلى أن تقوديني وحدك — إنى أستسلم لدينك الغامض ...

(٢) إنه لشئ قليل بالنسبة إليك ألا تكون لى حياة — وأن ألغى إنيتى العزيزة على ...

النهائية ، وإبطال آخر مقاومة للكبرياء ، والانتصار بالله . Inveni portum : لقد وجد الطمأنينة التى لم يعرفها أبداً قبل اتصاله بمدام جويون ، والتى لايريد أن يفقدها حتى مماته . وكان يعترف بأخطائه ، إذا كانت أخطاء ؛ ويفرض على نفسه العقاب ، إذا ارتكب خطيئة : ولكن ذهنه لم يكن فيه محل للخطأ ، ولم يكن فى مقدور قلبه أن يأثم ؛ كان غير شئ تماما ، رماداً — بقية حب يبلغ من القوة أنه لم يجد قناعة إلا فى موت الكائن الذى اختار أن يحرقه . إن مأساة سيره الباطنى نحو الحب الصافى ، لأهم عند فنيلون من المأساة التى يتجه إليها اهتمامنا عادة — الجدال مع بوسويه ، الرسائل ، البحوث ، الردود ، الردود على الردود ، الأخاص ، المرافعات ، القرارات . مأساة خفية ، لايمكن لرجل الشارع أن يكون لديه ولو فكرة عنها : هل يستطيع أن يتصور الصفة المؤثرة ، الصفة الخطيرة لتحول الماهية البشرية هذا إلى ماهية إلهية ، لهذا التطهر بالنار؟ — « عندما أتحدث عن الحب الصافى ، لا أقصد الحب الحار الذى لا يعمل إلا على تجميل من يشعر به ، والذى يبدو كأنه مخصص له : هذا الحب غير مكمل ، مع أنه الحب الذى يعده الجهال ذروة القداسة . لست أرى حبا صافياً إلا الحب القاسى ، المبيد ، الذى لا يجمّل أو يزين صاحبه ، بل ينتزع منه كل شئ بلا رحمة ، لكيلا يبقى فيه شئ ، وبذا لا يحول شئ دون انتقاله إلى الآخرة . وفيما عدا ذلك لا يمكن أن يكون للحب الصافى وجود . كل عنايته تتجه إلى أن يقبّح ، وينتزع ، ويهلك ، ويضيع ؛ لا عيش له إلا فى الهلاك ؛ إنه مثل هذا الوحش الذى رآه دانيال والذى يأكل ، ويسحق ، ويلتهم كل شئ . »

***

كان لمدام جويون أتباع فى كل أنحاء أوربا ، وقد نشر بواريه Poiret مؤلفاتها ، بواريه الذى لم يكن أقل من علّموا «لاهوت القلب» . كان المتحمسون يطاردون بلا جدوى : ما من قوة كانت تتغلب عليهم ؛ وكيف يمكن ردهم إلى جادة العقل ، ماداموا يرفضون التعقل ؟ كانوا يتزايدون ، ويتكاثرون ، أولئك الجشعون ، أولئك المتحمسون ، بل أولئك المرضى الذين ، وقد غالوا فى نصائح الأساتذة المغالين ، انتهوا إلى البحث عن الله فى غليان أعصابهم ، فى اختلال أذهانهم ، فى الجنون . لقد كانوا يرفضون أى إجبار ، إجبار الكنائس الأهلية ، التى كانت

تبدو لهم كسجون ؛ و إجبار رجال الدين، الذين كانوا يسمونهم الطغاة ؛ بل حتى إجبار المجتمع ، الذى كان يضطهدهم . ويعدون التقدم فساداً ، والعلم انحلالا . ويقبلون على وجه العموم الخطيئة الأولى ، والخلاص . أما وقد انتهت فائدة هذا الخلاص الأول ، فلابد من خلاص ثان، مجيئه وشيك . لقد انتهى الزمن ، إن « النبى الكذاب » Antéchrist يسيطر على الدنيا ، التى لم يعد فيها مسيحيون حقيقيون:

Cet Antéchrist est né
Ja plus d'un an passé.
Le temps est arrivé
Qu'il soit manifesté.
Je l'ai vu en esprit
Par une claire nuit,
Sur un théâtre grand
Riche et resplendissant,
Couvert d'un pavillon
Bordé à l'environ,
Tout tendu de velours
Incarnat à l'entour.
Dessus un lit mollet
Demi couché il est,
Il n'est plus en bas âge
Ains un grand personnage.
Sa gloire est sans pareille,
On l'estime à merveille;
Fait paraître son train
De nuit, en grand festin :
Il a valets en nombre,
Comme une armée innombre
Du peuple aux environs
De toute nation . . . (١)

---

(١) لقد ولد هذا النبى الكذاب — منذ أكثر من عام — وقد حان الوقت — لكى تزيح عنه الستار — لقد رأيته فى المنام — ذات ليل مضئ — على مسرح كبير — غنى ساطع — يظله سرادق — منقوش الحروف — كله من مخمل قرمزى — مستلقيا على فراش وثير — ليس صغير السن — بل يبدو كرجل كبير — إن مجده ليس له نظير — يقدره الناس أكبر التقدير — يجعل من حياته فى الليل — حفلة كبيرة : عنده عدد كبير من الأتباع — كجيش عرمرم — يحيط به حشد — من كل شعب (انطوانيت بورنيون ، النبى الكذاب المكشوف ، أمستردام ١٦٨١ ، الفصل الثالث والعشرون) .

بدأت النكبة الأولى : الحروب ؛ وسوف تتبعها الأخرى ، الطاعون ، والنار ، والمجاعة . ولكن الله لن يدع المؤمنين يهلكون . عن قريب سيأتى المسيح ، جسما ، وروحا ، وألوهية ، وفى مجد عظيم ، حينئذ يبدأ عهد السعادة الصحيحة .

وكثيراً ما كان أولئك المتحمسون يؤسسون الجمعيات ؛ مثل جوهان جورج جيتشل ، الذى أسس جمعية الاخوان الملائكيين : فعلى أشياعها أن يحولوا الناس إلى ملائكة ، بالتخلى عن كل المشاغل ، وكل الأعمال ، بالتأمل والخمود . أو مثل جين ليد التى أسست مذهب « صوفى المتصوفة » ونظمت شيعة « الفيلادلفيين » ، والتى وجدها جتشل ضيقة الأفق ، ولا تتفق بساطتها مع ذوقه . كانت تقنع برؤى متواترة ، وتنبؤات كالآتية : سوف تفتح الأختام السرية لكتاب الحمل ، سوف يطارد أتيلا العظيم التنين ، وسيرفع الفيلادلفيون راية المحبة المطرزة بالاسم الملكى ، وسينتشر الانجيل فى كل مكان ، وسوف تدين أكثر بلاد الأرض تأخراً للمسيح المنقذ . . .

ولم يكتفوا بالاستسلام العلوى ؛ بل كانوا يرون رؤى إعجازية ، ويقعون فى نشوات وغيبوبات ؛ لم يعد الأمر يتعلق بالمتع الروحية فحسب بل بالمتع الحسية أيضاً . كانوا يكافحون الشيطان ، الذى كان يتبدى لهم فى صور مرعبة ؛ ويخرجون منتصرين من تلك المعارك المضنية . كانوا أنبياء ، شافين ، صانعى معجزات : يالصانعى المعجزات المساكين ، الذين سجنهم الناس ، ورجموهم بالحجارة ، الذين انتقلوا من مدينة إلى مدينة ، ومن بلد إلى بلد ، يتعقبهم أصحاب السلطان ، وفى نفس الوقت جنونهم . وكانوا يجدون سلوة فى التفكير فى أن الشيطان هو الذى يجر عليهم هذا العذاب ، لأنه كان يرى فيهم مدمرى سلطانه وعدة الله . وكانوا يموتون تعساء ، على أسرة المستشفيات؛ وأحيانا يموتون فى عذاب ، مثل كورينوس كوهلمان ، الذى ، بعد أن اخترق ألمانيا وهولندا وانجلترا وفرنسا وإيطاليا وتركيا ، باذراً الحب فى أراض مجدبة جرداء ، محاولا إنشاء الجمعيات فى طريقه ، معلنا أن بابل سوف تسقط وتبتدئ الملكية الخامسة للصالحين — أحرق فى موسكو عام ١٦٨٩ .

فلنفكر فى عددهم الكبير ؛ وفيما بينهم من علاقات ، وروابط ، وصلات ؛ وفى الكتب التى ينشرونها بوفرة ، والتى تجد دائما مترجمين فى كل بلد ، شبكة « تيوصوفية » théosophique واسعة تمتد خلال أوروبا . فلنفكر

فى طبقة أخرى من الأفراد الذين يتغذون بأحلام أخرى : فى أشياع « الصليب الوردى » الغامضين ، فى القبليين Cabalistes ؛ فى الموقفين الذين ينشدون حجر الفلاسفة ، ظانين أنهم سيستطيعون إذابة مظاهر روح الكون الموحدة بعضها فى بعض : حينئذ سوف تتكون لدينا فكرة ، عن تخمر هائل متصل .

إن الشعور يهزمه العقل ، ولكنه لا يقبل هذه الهزيمة . ضد أنوار المعرفة ، كما يفهمها الفلاسفة ، يزعم « الملهمون » les illuminés أن لديهم ناراً تنيرهم وتشعلهم فى وقت واحد . ضد العلم الذى يستأمن المستقبل على تقدمه ، يعلن « البتوصوفيون » أن لديهم علما مباشراً لدنياً ، هو وحده الذى يحسب له حساب . إن سواد المفكرين المعاصرين يقولون : « المعرفة » ؛ ولكن أقلية تجيب : « المحبة » . إن أنطوانيت بورنيون ، فى حياتها المغامرة المتعدية ، حياتها المضطهدة — تلك المرأة العجيبة التى انتهى الأمر بها إلى ألا يكون لها إلا حياة عاطفية ؛ التى تتصل مباشرة بالله وتحتقر المعرفة لأنها تحجب الحكمة الغامضة التى تكفيها كل الكفاية ؛ والتى تعلن أنه حتى لو اندثر الانجيل ، لوجد المخلوق فى نفسه ناموسا يكفى ليقوده نحو الحقيقة ونحو السعادة (١) — أنطوانيت بورنيون هذه ، واجهت ذات يوم بعض الهولانديين من أشياع ديكارت . « لقد عقدت اجتماعات مع الديكارتيين ، وكونت عن مبادئهم فكرة مروعة . . . لم يرضوا عنها قط ، ولم ترض عنهم بالمثل . لم يكن منهج الديكارتيين من شأنها ؛ لم تكن تريد أن نستشير أنوار العقل ، على حين أن مبدأهم أنه يجب أن نفحص كل شئ بهذا المحك . وكانت تؤكد « أن الله قد كشف لها ، بل قال لها صراحة إن غلطة الديكارتيين هذه ، هى أسوأ الغلطات ، وألعن إلحاد رآه العالم ، وأنها كفر بيّن ، أو إنكار لله ، الذى يحل محله العقل الفاسد . » يضاف إلى ذلك ما كانت تقوله عن الفلاسفة من أن « مرضهم مرده إلى أنهم يريدون فهم كل شئ بنشاط العقل البشرى ، دون أن يتركوا أى مجال لالهام الايمان ، الذى يتطلب إبطال عقلنا ، وذهننا ، وفهمنا الضعيف ، لكى ينشر الله فيها ، ويذكى ذلك النور الالهى . وبغير ذلك ، لا يقتصر الأمر على أننا

---

(١) النور المتولد فى الظلمات ، انفرس ١٦٦٩ - الطبعة الثانية ، أمستردام ، ١٦٨٤ .

لا نعرف الله حق المعرفة فحسب ، بل إن الله ومعرفته الحقيقية يبتعدان أيضاً عن النفس بفعل نشاط عقلنا هذا ، وذهننا الفاسد . وإن هذا لنوع من الكفر ، وإنكار الله . . . (١)»

***

«عندما ألغى القرن الثامن عشر ، أو ظن أنه ألغى — والمعنى واحد — صورة الاله ذى اللحية البيضاء ، الذى يشمل كل مخلوق بنظره العطوف ، ويحميه بيمينه ، لم يلغ فى نفس الآن المسألة الدينية . لأن الرغبة الصوفية شئ ، والصورة التى نتخذها رمزاً لهذه الرغبة ، ترضية لأنفسنا ، شئ آخر . فاذا زال الرمز ، بقيت الرغبة . إن الانسان عطش إلى أن يجد فوقه ملاذا سامياً يبث إليه رغباته المكبوتة ، التى تصر على أن تنبجس من أعماق نفسه (٢) .»

---

(١) بيير بايل ، القاموس ، باب بورنيون ، بيان ك .

(٢) بيير ابراهام ، شخصيات عند بلزاك ، ١٩٣١ ، ص ١٥ .

خاتمـــة

ما هى أوربا ؟ بغضاء محتدمة بين جيران يتقاتلون . منافسة بين فرنسا وانجلترا ، وبين فرنســا والنمســا ؛ حرب حلف أوجسبرج ، حرب الوراثة الاسبانية(١) حرب عامة ، كما تذكر المؤلفات التاريخية التى لقيت صعـوبة فى تتبع تفاصيل هذه المعارك المهوشة . الاتفاقات لا تؤدى إلا إلى هدنات قصيرة ، والسلام لم يعد إلا حنيناً إلى الوطن ، والشعوب تنهك بينما تستمر الحرب : والجيوش تعاود القتال فى كل ربيع .

إن ليبنتز ، وقد رأى استحالة منع الأوربيين من التقاتل ، يعرض عليهم توجيه حميتهم الحربية الجنونية إلى الخارج . فالسويد وبولونيا تغزوان سيبريا وروسيا الجنوبية ، وانجلترا والدانمرك تختاران أمريكا الشمالية من نصيبهما ؛ ويكون لاسبانيا أمريكا الجنوبية ، وهولاندة بلاد الهند الشرقية ؛ وترى فرنسا أفريقية فى مواجهتها ، فلتغتصبها ، ولتتوغل حتى مصر ، ولتبسط حتى الصحراء سلطان زهور الزنبق . هكذا تستغل كل تلك الجنود ، كل تلك البنادق ، كل تلك المدافع ، ضد البرابرة ، وضد غير المؤمنين ؛ وهكذا تتباعد المطامع والمصالح فى أقاصى الأرض ، ولا تتصادم بعد ذلك أبداً .

أما الأب سان بيير فلا يقنع بابعاد المنازعات . « عندما فكرت فى شأن القسوة ، والقتل ، والعنف ، والحريق ، وغير ذلك مما تسببه الحرب من خراب ،

---

(١) حرب حلف أوجسبرج : حلف وقع عقب فسخ أمر نانت بين النمسا وإسبانيا والسويد وبعض أمراء ألمانيا ووليم أورانج ضد لويس الرابع عشر . وامتدت الحرب تسع سنين وانتهت بصلح رزويك (١٦٨٨ - ١٦٩٧) .

حرب الوراثة الاسبانية : بين فرنسا والدول المتحالفة : النمسا وانجلترا وهولاندة بمناسبة جلوس فيليب الخامس (حفيد لويس الرابع عشر) على عرش اسبانيا ، انتهت بمعاهدة أترخت (١٧٠١ - ١٧١٣) . [المترجمان]

ولما كنت شديد التأثر بما أصيبت به فرنسا وغيرها من شعوب أوروبا ، جعلت أبحث فيما إذا كانت الحرب شراً ليس له دواء ، وفيما إذا كان من المحال جعل السلام مقيما . . . (١)» أجل ، فلنجعل السلام مقيما ، بل دائماً ! ولتجعل الأملاك الحالية مكتسبة إلى الأبد ، لا تقبل أى تغير أو تصرف ؛ ولكيلا يكون لدى دولة جيوش أكبر مما لدى جيرانها ، تحدد القوات العسكرية ويعين عددها ، وليكن اثنى عشر ألف فارس على الأكثر . وإذا تولد نزاع بالرغم من كل ذلك ، يحتكم فيه إلى « الاتحاد » ، وعند الاقتضاء يعلن «الاتحاد» الحرب على الأمير الذى يرفض الخضوع للنظام الذى وضعه ، أو الاذعان للحكم الذى أصدره . وينعقد مجلس مستديم من مندوبين مفوضين فى مدينة حرة ، محايدة ، مثل أترخت ، كلونيا ، جنيف ، أو أكس لاشابل . . . إن كلمة تفتن الأب سان بيير ، وهو ينظم — بدقة الخياليين — تفاصيل حلمه ؛ كلمة يخالها تتضمن كل الآمال ، كلمة « أوربى » : محكمة أوربية ، قوة أوربية ، جمهورية أوربية . فليسمع الناس له ، حينئذ تصبح أوربا جمعية ، بدلا من أن تكون ميداناً للقتال .

ولكن عندما أراد ليبنتز فى عام ١٦٧٢ أن يشرك فرنسا فى مشروعه العظيم ، كانت الحرب قد أعلنت على هولاندة ؛ وليس من المحقق أن لويس الرابع عشر قد قابل هذا الفيلسوف الذى قدم من ألمانيا ليحضه النصح . وعندما جعل الأب سان بيير ، بعد أربعين عاماً ، يقيم سراباً فوق سراب ، تركه معاصروه يبنى أحلامه السابقة لأوانها فى الخلاء . ولما كان الأب سان بيير ، يمتلئ بحمية جديدة ، ويبحث عن عون ، فقد أبلغ خططه إلى ليبنتز ، ذلك البطل العجوز فى قضية السلام الكبرى ، فرد عليه ليبنتز فى حزن شديد. رد عليه بأن أكثر ما يعوز الناس ليتخلصوا مما لا يحصى من الشرور ، هو الارادة ؛ وأن الأمير الهمام يستطيع ، فى أسوأ الظروف ، أن يرد غائلة الطاعون أو المجاعة عن حدود بلاده ، إلا أن تفادى الحروب أشق من ذلك بكثير ، لأن الأمر لا يتعلق بقرار رجل واحد ، بل يتطلب مشاركة الأباطرة والملوك . ولا يوجد الوزير ، على حد قوله ، الذى يستطيع أن يعرض على الامبراطور

---

(١) شارل كاستيل دى سان بيير ، مذكرات لجعل السلام دائماً فى أوروبا ، كولونيا ، ١٧١٢ مقدمة .
Ch. Castel de Saint-Pierre, *Mémoires pour rendre la paix perpetuelle en Europe*, Cologne, 1712. *Préface*

أن يتنازل عن حقوقه فى وراثة عرش إسبانيا ، وبلاد الهند ، لقد كان الأمل فى إدخال الملكية الاسبانية إلى العرش الفرنسى ، مصدر خمسين عاماً من الحرب ؛ ويخشى أن الأمل فى إخراجها منه قد يعكر صفو أوروبا خلال خمسين سنة أخرى . « هناك فى أغلب الظروف ، أسباب مقدرة تحول دون أن يكون الناس سعداء . . . (١) »

***

ما هى أوربا ؟ شكل متناقض : قطعى معين ، وغير ثابت فى وقت واحد . اشتباك من الحواجز ، أمام كل منها أناس صناعتهم طلب إجازات السفر ، ودفع المكوس ؛ كل العوائق الممكنة تقام فى سبيل الاتصالات الأخوية . حقول نعتنى بتحصينها حتى لا نجد وقتاً لاستغلالها ؛ ما من قيراط واحد من الأرض إلا كان محل نزاع من قرون ، وكل مالك يسوره بدوره . لم تعد هنالك مساحات واسعة كبيرة حرة ؛ كل شئ منظم ، معين ، محدد ؛ إننا نشعر بضيق واختناق ؛ لا يوجد محل خال : « لقد قدمت إلى الدنيا متأخراً ، حتى إنى لا أكاد أجد فيها شبراً من الأرض لأبنى فيه لنفسى مقراً ، وقبراً (٢) . »

هذه الحدود المعينة ، نجعلها غير محققة ، مادمنا نغيرها تبعاً للفتوحات ، والمعاهدات أو حتى بمجرد وضع اليد . هذه الحواجز ، نقدمها ، ونؤخرها ، ونزيلها ، ونقيمها من جديد ؛ ولا يكاد الجغرافيون ينتهون من وضع الخرائط الجديدة ، حتى تصبح هذه الخرائط عديمة القيمة (٣) . ممالك بأسرها نريد أن

---

(١) ليبنتز إلى الأب دى سان بيير . من هانوفر ، ٧ فبراير ١٧١٥ - اقرأ لنفس المؤلف ، ملاحظات عن مشروع السلام الدائم للأب سان بيير (مصنفات ليبنتز ، طبعة فوشيه ، الجزء الرابع) .

(٢) مارانا : محادثات بين فيلسوف ورجل منعزل عن موضوعات شتى أخلاقية وعلمية ، ١٦٩٦ ، ص ٢٩ . انظر أيضا ص ٢٨ : « يحاول الناس فض المنازعات بالعنف والحدة ، فالقوى سيتغلب دائماً على من كان أقل استعداداً للدفاع عن نفسه ؛ وطالما هنالك ولايات وممالك ، وشعوب ، ستبقى العداوات والحروب ، تماماكما ستوجد الرذائل طالما هنالك أناس فى الأرض . . . »

(٣) جريدة العلماء ، ١٣ إبريل ١٦٩٣ . بمناسبة « الحالة الحاضرة للشئون الأوربية » ١٦٩٣ : « لا يمر يوم تقريبا إلا وتتعرض فيه لتغيير جديد . »

نجعلها تكملة لممالك أخرى ، وجبال البرانس نريد أن نلغيها . ومن هنا هذا التناقض الداخلى : إن أوروبا لمركب من أشكال تزعم أنها لا تمس ، بينما هى لا تكف عن المساس بها .

من جهة الغرب يسود الاطمئنان : فلن تأتى عن طريق البحر أساطيل بربرية كبيرة ؛ ولن يقبل الغزاة الأجانب لتخريب القرى العريقة ، وإذا حدث قتال ، فلن يكون هذا — ولله الحمد — إلا بين إخوان ؛ انجليز ،فرنسيين ، برتغاليين ، وإسبان . — وفى البحر الأبيض المتوسط ، جعل الأتراك يأتون بأعمال مهينة حيال السياح والبلاد الواقعة على الشاطئ : إلا أنهم لا يمثلون خطراً داهماً — أما من جهة الشرق ، فيا للمفاجأة ! فيما مضى ، كان على أوربا أن تدافع عن نفسها أمام جيوش الهلال ، التى جاء دورها لتقبض على زمام المدنية . أما الآن فلم تعد المسألة بهذه السهولة . فهاهم أولاء ملايين من الناس يظهرون على أبواب الشرق ، مطالبين ، تنفيذاً لارادة القيصر ، بالانضمام إلى أوربا . يطلبون أن ترسل إليهم منتجات أمستردام ، ولندن ، أو باريس ؛ ونماذج أيضاً وأساتذة ؛ فهم يحلقون لحاهم وشعرهم ويغيرون ملابسهم ويدرسون اللغة الألمانية . . . لكن نفوسهم ، ترى هل يغيرونها بمثل هذه السرعة ؟ هل سيقنعون بدور التلامذة المتأخرين ، الذين ينصتون فى تواضع إلى دروس نسانية سامية ؟ وإذا نحن لبينا رجاءهم (وكيف لا نلبيه ؟) أفلا يحتمل أن يعرضوا علينا يوماً حكمتهم الخاصة مقابل حكمتنا ؟ أما كونها حكمة أو جنوناً ، فهذا هو السؤال الذى سيعرض فيما بعد . لكن أوربا تشعر من الآن بشئ من الضيق ، فقد فقدت توازنها بفعل أوربا المنافسة هذه ، بفعل هذا الامتداد والتقليد والتزييف لأوربا التى ظهرت على حدود الشرق .

أوربا ، أرض النزاع والحسد ! الحسد والألم والمرارة . فاللاتين يحتقرون الجرمان ، لضخامة جرمهم ، وجفوة خلقهم ، وبلادة ذهنهم ؛ والجرمان يحتقرون اللاتين ، المنهوكين ، المنحلين . واللاتين يتشاجرون فيما بينهم ؛ يبدو أنهم يتألمون حين يضطرون إلى الاعتراف بمزايا شعب مجاور ، فلا يخطر ببالهم أبداً سوى النقائص . مثل معطف أزموديه ، الشيطان الأعرج ، حيث نرى صوراً لا تحصى منقوشة بالحبر الصينى : فليس بينها صورة جميلة ، بل كلها قبيحة : سيدة إسبانية متشحة تغازل أجنبياً فى الطريق ؛ سيدة فرنسية تتمرن أمام المرآة

على حركات مغرية جديدة ، لتجربها على قسيس شاب ، يتقدم إلى مدخل غرفتها ، وقد جمّل وجهه بالأحمر وبخال اصطناعى ؛ جماعة من الألمان ، غارقة فى الفوضى ، وقد صرعهم النبيذ ولوثهم الطباق ، يحيطون بمائدة تفيض بآثار فسقهم ؛ انجليزى يقدم إلى رفيقته بكل رشاقة غليوناً وقدحا من الجعة ...(١) وبالمثل ، أدخل إلى حديقة السيد سبكتاتور : تجد الأزهار ، بمجرد أن تصبح شعاراً للشعوب ، تفقد بهاءها وشذاها : فان أريج زهور إيطاليا بالغ القوة ، يؤذى المخ ؛ وأريج زهور فرنسا — ولو أنها زاهية ، فاتنة ، حية — ضعيف وعابر ؛ وزهور ألمانيا وبلاد الشمال إما أن أريجها ضعيف وإما أنها ليس لها أريج ، وإذا كان لها رائحة فهى كريهة على كل حال(٢) .

***

ومع ذلك ، فاذا استمع المرء مدة طويلة ، كما استمعنا ، إلى الصيحات والشكاوى التى تصّاعد من هذه الأراضى المعذبة ، فانه يسمع أيضاً ، وسط التحرش والتأنيب ، أصوات الكبرياء . يسمع أنشودة تتعالى شيئاً فشيئاً تمجيداً لمزايا أوربا التى لا تستطيع أى قوة فى الدنيا أن تعادلها ذكاء ، وقوة ، وظرفاً ، وبهاء .

صحيح أن أوربا أصغر أقسام الدنيا الأربعة : ولكنها أجملها ، وأخصبها ، إذ ليس فيها قفار أو صحراء ؛ كما أنها أكثرها استثماراً ؛ ارتقت فيها الفنون العقلية والميكانيكية إلى نضرة ليس لها مثيل . فليمدح الآخرون ، إذا شاءوا ، العجائب التى تكتشف فى الصين : « هناك ضرب من العبقرية لم يخرج بعد من حدود أوربا ، أو على الأقل لم يبتعد عنها كثيراً ولعله غير مسموح له أن يمتد إلى مساحة واسعة من الأرض مرة واحدة ، ولعل القدر يفرض عليه حدوداً ضيقة . فلنتمتع به طالما نمتلكه ؛ ومن خير مزاياه ، أنه لا يقتصر على العلوم وعلى الدراسات النظرية الجافة ، بل يمتد بنفس النجاح حتى فنون اللهو والتسلية التى أشك فى أن شعباً من الشعوب يقف فيها معنا على قدم المساواة (٣) . »

---

(١) لوساج ، «الشيطان الأعرج» ، الفصل الأول .
(٢) سبكتاتور ، رقم ٤٥٥ .
(٣) فونتنل ، محادثات عن تعدد العوالم ، الأمسية السادسة .

ومهما كانت أوربا منقسمة على نفسها ، فانها تتحد بمجرد أن تواجه القارات التى عرفت كيف تستعبدها ، والتى تستطيع أن تتغلب عليها كلما لزم الأمر . مازالت باقيـة فى أذهان شعوبها ذكريات الرحلات البحرية الباسلة ، والاكتشافات ، والسفن الموسوقة بالذهب ، والأعلام المجيدة التى رفعتها على أنقاض الممالك البربرية . ولا زالت تشعر ، على حد قولها ، إنها « سهولة » ، و « محاربة » . « ولو أن أوربا أرادت أن تذهل الشرق والغرب ، لأذهلتهما قبل أن تقرر ذلك » . — « عند أول إعلان للقتال يصدره أمراء أوربا ، يجدون رجالا يحملون السلاح طواعية — لا تدفعهم إلا رغبة واحدة هى اكتساب المجد — أكثر ممن يستطيع الآسيويون والافريقيون أن يجمعوا بفضل الذهب ، والفضة ، والوعود. (١) » إن أوربا — وإن كانت ممزقة ، مجروحة لوعيها التام لابتعاستها فحسب ، بل بأخطائها أيضاً ، وإن كانت تندم على فقـدان وحدة العقيدة فوق ندمها على كل ما تشعر به من خسار ، وإن كانت يائسة من أن تدعى « بالمسيحية » كما كانت تدعى فيما سبق — إن أوربا لازالت تحتفظ مع ذلك بشعور من امتياز يخصها وحدها ، من بديعية تزيدها كل مقارنة ظهوراً ، من قيمة موقوفة وفريدة .

***

ماهى أوربا ؟ تفكير لا يقنع أبداً . إنها لا تكف أبداً ، دون أن تشفق على نفسها ، عن تتبع بحثين : أحدهما فى سبيل السعادة ، والآخر فى سبيل الحقيقة ، وهو ألزم لها ، وأعز . لا تكاد تجد حالة توفّى هذه الضرورة المزدوجة، حتى تحس ، وتعرف ، أنها لا تملك بعد إلا الموقوت ، إلا النسبى ، وبصورة غير محققة ؛ وتعاود بحثها المستيئس الذى تجد فيه مجدها وعذابها .

وفى خارجها ، كتل بشرية ، لم تلمسها المدنية ، تعيش بلا تفكير ، قانعة بالحياة . وأجناس أخرى تحس أنها بلغت من الشيخوخة والسأم ما يجعلها تكف عن قلق سخين ، وتستغرق فى جمود تدعى أنه حكمة ، وفى عدم تزعم أنه كمال .

---

(١) لويس دى ساى ، «السائح الحذر» ، جنيف ، ١٦٨١ ، المقال الرابع « عن أوربا عامة» .

وأجناس أخرى أمسكت عن الاختراع ، مكتفية بالتقليد على الدوام . أما فى أوربا ، فنحن ننقض فى الليل النسيج الذى نسجه النهار ؛ ونجرب خيوطاً أخرى ونصنع لحما أخرى ، وفى كل صباح نسمع صخب الأنوال التى تصنع الجديد ، فى اهتزاز وارتجاف .

وإذا كان ذلك العامل الطماع قد استشعر يوماً أنه يستطيع أن يتوقف وأن يرتاح — لأنه أنتج أخيراً أروع تحفة — فانما كان ذلك فى العصر الكلاسيكى . هل كان يستطيع أن يخلق أشكالا أجمل وأمتن ؟ أشكالا تبلغ من الجمال والمتانة ما يجعلها تنال إعجابنا اليوم ، وتكون جديرة بأن تعرض كنماذج لأبنائنا وأبناء أحفادنا ؟ بيد أن هذا الجمال نفسه يفترض أمامنا فى الأذهان التى أنتجته . لقد وجدت الكلاسيكية وسيلة لكيلا تطرح الحكمة القديمة ، ولكى تباشر الحكمة المسيحية ؛ ولتحقق الاتزان بين مقدرات النفس؛ ولتبنى النظام على أساس القناعة والاعجاب ، ولتأتى بمائة معجزة أخرى ، ولتجعل كل شئ فى كلمة واحدة ؛ لتعرض على الناس حالة تقرب من الطمأنينة .

حتى أن أوربا ، وقد سعدت بتأمل هذه النتيجة الجديرة بالذكر ، توقفت لحظة . لقد توهمت ، هنيهة ، أن فى مقدورها أن تتوقف قليلا فى وسط آمال وأوجه نظر تبلغ من الصحة والعظمة أنها لن تجد أبداً أضبط منها أو أكمل .

أمل لم يطل ، بل سرعان ما أنكر ؛ ميل إلى التوقف ، أكثر منه توقفاً صحيحاً ، لأن أوربا لم تكف أبداً عن احتمال قانونها الخاص ، قانونها القاسى . قبل أن ينتهى العلماء ، فى دنيا تقيم منطقها على الارتضاء المختار للسلطة ، من شرح مذاهبهم وما بها من فوارق دقيقة ، جعل علماء آخر يلفتون الأنظار إلى ما فى هذه السلطة نفسها من أخطار وسوء استعمال ، ونقائص ، وانتهوا إلى رفض كل قيمة لفكرة السلطة ، مكافحين كل ما فيها من تجاوز ومغالاة . هكذا بدأ العمل فى البحث من جديد ، خفية ؛ وتولد الاضطراب تحت المظاهر الهادئة ؛ وجعل الناس يسعون نحو سعادة أخرى ، نحو حقيقة أخرى ؛ وأخذ القلقون ، محبو الاستطلاع — الذين كانوا مستذلين ، مضطهدين ، مستخفين فيما سبق — يظهرون فى وضح النهار ، ويتقدمون ، ويشتهرون ، ويطالبون بمكان القادة والرؤساء . تلك هى أزمة الضمير التى شهدناها ، فيما بين القرن السابع عشر والثامن عشر .

***

لكن ، من ذا الذى غذى هذا التفكير النقدى ؟ من أين اتخذ قوته ، وجرأته ؟ وأخيراً من أين يأتى ؟

من أعماق الدهر ؛ من عهد اليونان القديمة ؛ من هذا العالم أو ذاك من علماء القرون الوسطى الملحدة ؛ من هذا المنبع القصى أو ذاك ؛ لكن من زمن النهضة بلا مراء . إن بين النهضة والزمن الذى ندرسه قرابة لا مرية فيها . نفس الرفض ، من جانب العلماء المجترئين ، رفض إلحاق البشرى بالإلهى . نفس الثقة ، الثقة بالبشرى ، البشرى وحده ، الذى يحدد كل الحقائق ، ويحل كل المسائل ، أو يعد ما يعجز عن حلها كأن لم تكن ، والذى يتضمن كل الآمال . نفس التدخل من طبيعة ، غير معرّفة كل التعريف ، ولكنها قادرة كل القدرة ، لم تعد من صنع الخالق ، بل هى الحمية الحيوية لكل الكائنات على العموم وللانسان على الخصوص . نفس الشقاق ، فان فشل وحدة الكنائس ، فى نهاية القرن السابع عشر ، ليس إلا تأييداً للشقاق الذى حدث فى القرن السادس عشر ، والذى حاول الناس إزالة صفته القاطعة بلا جدوى . نفس الجدال الذى لا ينتهى ، فى علم التاريخ ، وفى السحرة . هذه السنون الشاقة ، هذه السنون ذات الجهد والنبل ، حيث يتأمل كل امرئ حتى أغوار نفسه ، حيث يعى المدعون والمدافعون أنهم يكافحون فى سبيل عقيدتهم بأكملها ، حيث لا يزال الارتياييون يبدون فى صورة مهتدين جدد ، حيث لا يجهل أحد أن الأمر يتعلق بتفسير قاطع للحياة — هذه السنون تبدو لنا بمثابة «نهضة» ثانية . إلا أنها أكثر منها صرامة ومشقة ، وكأنما هى مستدركة مستفيقة : نهضة بدون رابليه(١) ؛ نهضة بلا بهجة .

ليس الأمر أمر تشابه مبهم ، بل هو صلة تاريخية يسهل علينا إدراكها . أولئك المجتهدون المتحمسون ، كتّاب المجلدات الضخمة ، أولئك القراء الكبار

---

(١) Rabelais : مؤلف فرنسى فى القرن السادس عشر (١٤٩٤ - ١٥٥٣) ، صاحب «حياة جارجانتوا وبانتاجرويل» *Gargantua et Pantagruel* . وضع أفكاره عن الانسانية وفلسفة الطبيعة والأخلاق الأبيقورية فى أسلوب هزلى مرح بهيج . ويتميز بروح نقدى عال ، وشك ، وحب حى للانسانية والعدالة ، وتقديس للعلم الحقيقى . [المترجمان]

الذين لم تشبع شهيتهم أبداً ، — و إن كانوا لم ينظروا بعين التقدير إلى الشعراء الذين تدين لهم النهضة بفتنتها وبسمتها — إلا أنهم درسوا الفلاسفة الذين كونوا روحها الجسور ، وعرّفوها متعة وعذاب تفكير ليس له حدود . إنهم سمعوا لهم ، وأعجبوا بهم ، وتبعوهم . إن بيير بايل لوريث نسل المتحررين الذين يمدون القرن السادس عشر حتى القرن السابع عشر : إنه يحب لاست لوفاييه ، الذى تتضمن « محاوراته » ، « أموراً بالغة الجرأة فيما يخص الدين ، ووجود الله » ؛ وهو يذكر لاسيليو فانينى عادّا إياه الشهيد المجيد لعدم التصديق . وهو يعرف من قبل ذلك جان بودان ، وشارون ، وميشيل دى لوسبيتال ، ولعله من نافلة القول أن نقول مونتانى Montaigne : الذى لفت نظره — فى لسانه الغالىّ القديم — إلى أن كثيراً من الناس يهملون الأمور للبحث عن العلل : وهذا مما شهدناه جيداً فى مثل المذنبات . وهو يعرف ، مثلما يعرف سواد معاصريه الكبار ، جيوردانو برونو ، الذى « كان رجلا ذا ذهن واسع ، ولكنه أساء استعمال معارفه ، لأنه لم يقتصر على مهاجمة فلسفة أرسطو فى وقت لم يكن أحد يستطيع أن يفعل ذلك دون أن يسبب مائة اضطراب ، بل هاجم أيضاً أهم حقائق الايمان . » وهو يعرف كاردان — « واحد من أعظم الأذهان فى عصره» « رجل ذو طبع فريد » — « الذى يقول إن أولئك الذين يزعمون أن الروح تموت مع الجسد ، هم بحسب مبادئهم أناس أصلح من الآخرين » ؛ وهو يعرف بومبونازى . ومن ذا الذى لا يعرفه ؟ إنه يعرف بالينجنيوس الملحد ، المؤلف الأثير لدى السيد نوديه ؛ إنه يُعرف ، بصفة عامة ، كل أولئك الذين لم يشاءوا الاعتراف بقانون آخر ، إلا قانون العقل البشرى(١) .

وبالمثل ، لا يجهل ريشار سيمون أحد ممن عكفوا على دراسة الكتب المقدسة من قبله ، والذين كان هدفهم الوحيد — طبقاً لقول جيوم بوستيل — « إخضاع الكون بأسره لاستعمال العقل الحق . » إن احترام النصوص ، ومعرفة اللغات العالمة ، وتقدم الفيلولوجيا ، وكل أنوار المعرفة التى أضاءت طريقه ، مصدرها « النهضة » . فهو يتبع مثال أساتذته البعيدين بالكلية الملكية : يقول « بين يدى وثائق دعوى رفعتها كلية اللاهوت بباريس على الأساتذة

---

(١) «أفكار عن المذنب» ، فى أبواب مختلفة ؛ و «القاموس».

الملكيين بالعبرية واليونانية ، بعد أربع سنوات من تأسيسها (١) . »

لقد لاحظ الناس هذا التحالف الأكيد بينهم ، فى أثناء حياتهم . إن بوسويه يجمع فى لوم واحد بين « إرازم وسيمون ، اللذان يزجان بنفسيهما فى الحكم بين القديس جيروم والقديس أغسطين ، بدعوى ما لها من امتياز فى الآداب واللغات (٢) » بينما يرى المعجبون بايل أنه ينبغى أن يقام له تمثال بجانب تمثال إرازم فى روتردام(٣) . إن أعداء الفلسفة يدينون فى حكم واحد سبينوزا ، برونو ، كاردان ، والنهضة الايطالية التى بعثت أخطاء الوثنية إلى الحياة ، ونشرت الكفر فى الدنيا(٤) ؛ ويمجد أصدقاؤها نهاية القرن الخامس عشر ، وبداية القرن السادس عشر ، التى انبثقت منها أشعة نور جديد(٥) .

***

هكذا ترتسم حركة التفكير الحديث ، كما يلى على وجه التقريب . تظهر ابتداء من النهضة ، حاجة إلى الاختراع ، ولع بالاكتشاف ، اقتضاء نقدى ، تبلغ من الوضوح أننا نستطيع أن نرى فيها الصفات الغالبة فى ضمير أوربا . ابتداء من منتصف القرن السابع عشر ، أو نحو ذلك ، نرى توقفا مؤقتاً ؛ توازناً غريباً يتحقق بين عناصر متعارضة ؛ مصالحة تقع بين قوى متعادية ؛ وهذا النجاح ، الاعجازى بحق : الكلاسيكية . فضيلة مسكّنة ؛ قوة هادئة ؛ مثال لطمأنينة توصّل إليها ، بوعى ، أناس قد عرفوا — كما عرف الناس قاطبة — الشهوات والشكوك ، ولكنهم يتوقون — بعد اضطراب العصر السالف — إلى نظام منقذ . ولا يعنى هذا فناء روح الفحص : فهو باق لدى

---

(١) « رسائل مختارة » ، الرسائل ٥ ، ٩ ، ٢٣ .

(٢) « دفاع عن التقاليد والآباء القديسين » ، الفصل العشرون ، الكتاب الثالث ، القسم الأول : « نقد جرىء لارازم عن القديس أوغسطين ، يدعمه السيد سيمون . »

(٣) انظر بايل ، « مراسلات » ، طبع جيجاس ، مقدمة ، ص ٩ . بيير جوريو « فيلسوف روتردام ، المتهم ، المذنب واقعا وقانونا » ، ١٧٠٦ ، ص ٢ .

(٤) انظر جون افلين Evelyn ، « تاريخ الديانة » ، طبعة لندن ، ١٨٥٠ ، المقدمة . ص ٢٧ ، و ش. كورهولت : Ch. Korholt, *De tribus impostoribus magnis liber*, Kilonii, 1680, début

(٥) ل. ب. ، « مقالان مبعوثان فى رسالة من أكسفورد إلى نبيل فى لندن » ، ١٦٩٥ .

الكلاسيكيين أنفسهم ، منظم ، مكبوح ، معنيّ بأن يصل بالروائع الأدبية إلى ذروة الكمال ، تلك الروائع التى تقتضى صبراً طويلا لكى تكتسب الخلود . وهو باق لدى المتمردين الذين ينتظرون دورهم ، فى الظلام . إنه باق لدى أولئك الذين يتعاهدون مع النظم السياسية والاجتماعية — وهم يلعنونها ؛ تلك النظم التى ينتفعون منها ، والتى يجدون فيها متعة حياتهم ، مثل سانت أفريموند وفونتنل وغيرهما ، أرستقراطيو الثورات .

لذلك ، بمجرد ما تكف الكلاسيكية عن أن تكون مجهوداً ، إرادة ، قبولا متفكراً ، وتتحول إلى عادة و إلى إجبار ، فان الميول المجددة — المستعدة — تستعيد كل قوتها ونشاطها ؛ ويعود الضمير الأوروبى إلى بحثه الأزلى . حينئذ تبدأ أزمة تبلغ من السرعة والمباغتة ، أنها تدهشنا : بينما هى فى الواقع ليست إلا معاودة أو مواصلة ، قد سهرت على إعدادها تقاليد باقية من أجيال .

ولما كانت مكتملة ، متجبرة ، عميقة ، فانها تعد بدورها — قبل أن ينتهى القرن السابع عشر — القرن الثامن عشر بأكمله على وجه التقريب . لقد وقعت معركة الأفكار الكبرى قبل عام ١٧١٥ ، بل حتى قبل عام ١٧٠٠ . إن جرأة حركة التفسير Aufklärung ، جرأة عصر الأنوار ، لتبدو شاحبة هزيلة ، بجانب جرأة « البحث اللاهوتى السياسى » المتهجمة ، بجانب جرأة « علم الأخلاق » المدوخة . لافولتير ، ولا فردريك الثانى وصلا إلى حملات تولاند الجنونية ضد الأكليروس وضد الدين ؛ ولولا لوك لما كتب دالامبير « المقال الافتتاحى للانسيكلوبيديا » ؛ ولم يكن العراك الفلسفى أعنف من المعارك التى رن صداها فى هولاندة وانجلترا ؛ وحتى بدائية روسو لم تكن أكثر مطالبة بالاصلاح من بدائية أداريو الهمجى ، الذى قدمه لاهونتان المتمرد . من هذا العهد الكثيف المشحون الذى يبدو غامضاً ، ينبع بوضوح النهران الكبيران اللذان سوف يخترقان القرن بطوله ؛ أحدهما التيار العقلى ؛ والثانى و إن كان ضعيفاً فى بدايته ، ولكنه سيفيض فيما بعد على شواطئه : التيار العاطفى . وما دام الأمر فى هذه الأزمة نفسها كان يتعلق بالخروج من المجالات المخصصة للمفكرين للاتجاه نحو الجمهور ، للحاق به و إقناعه ، وما دام الناس قد مسوا مبادئ الحكومات بل حتى فكرة الحق نفسها ، وما داموا قد أعلنوا المساواة والحرية الفردية المنطقيتين ؛ ما داموا قد نادوا بحقوق الانسان والمواطن : فلنعترف أيضاً

بأن كل الاتجاهات الذهنية ، على وجه التقريب ، التى ستؤدى جملتها إلى الثورة الفرنسية ، كانت قد اتخذت قبل نهاية حكم لويس الرابع عشر . الميثاق الاجتماعى ، تفويض السلطان ، حق المواطنين فى العصيان ضد الأمير : حكايات قديمة ، نحو عام ١٧٦٠ ! فمنذ ثلاثة أرباع قرن أو أكثر ، والناس يناقشونها فى وضح النهار .

إن الكل فى الكل ، كما نعلم ؛ ولا شئ جديد ، كما نعلم أيضاً ، مادمنا قد انتهينا منذ لحظة من تسجيل القرابات والأنساب . لكن إذا وصفنا بالجدة ، إعداداً بطيئاً يصل إلى هدفه أخيراً ، إتباع الميول الأبدية التى تنبثق ذات يوم — بعد أن كانت مدفونة فى الأرض — محبوة بقوة ، وموشاة بنضرة ، تبدوان مجهولتين للناس ، الجهال الدائبى النسيان ؛ إذا وصفنا بالجدة طريقة معينة لعرض المسائل ، لهجة معينة ، اختلاجاً معيناً ؛ عزما معيناً على التطلع إلى المستقبل أكثر من الماضى ، على التخلص من الماضى مع الاستفادة منه فى نفس الوقت ؛ وأخيراً إذا وصفنا بالجدة تدخل « الأفكار — القوات » التى تصبح من القوة والوثوق بنفسها بحيث تؤثر تأثيراً جلياً على الحياة اليومية : فان تغيراً قد وصلت عواقبه إلى عصرنا الحاضر ، كان يعتمل فى السنوات التى قام فيها عباقرة مثل سبينوزا ، بايل ، لوك ، نيوتن ، بوسويه ، فنيلون — مع الاقتصار على ذكر أعظمهم — بفحص كلى للضمير ، لكشف الحقائق التى تسيطر على الحياة . ولنقل مع أحد أولئك العباقرة ، مع ليبنتز ، مادين قوله عن العالم السياسى إلى العالم الأخلاقى : Finis saeculi novam rerum faciem aperuit (١) : فى السنوات المختتمة للقرن السابع عشر ، بدأ ترتيب جديد للأمور .

---

(١) مصنفات ، طبع فوشيه دى كاريل ، الجزء الثالث : *Status Europae incipiente novo saeculo* . حالة أوربا فى مستهل القرن الجديد .

أسماء الأعلام

(ا)

إبيقور ١٢٧ ، ٢٦٦ ، ٢٩٠ ، ٢٩٢ .
أديسون ٥٩ ، ٦٤ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ٧٢ ، ٧٩ ، ٣٢٩ ، ٣٥٩ ، ٣٨٥ ، ٣٩٦ .
أربثنوت ٦٧ ، ٦٨ .
ارستوفان ٤٣ ، ٣٩١ .
أرسطو ٣٦ ، ١٠١ ، ١٢١ ، ١٣٣ ، ١٣٦ ، ١٧٤ ، ٢٤٣ ، ٢٤٤ ، ٢٤٧ ، ٢٥٠ ، ٢٦٦ ، ٣١٠ ، ٣٣٥ ، ٣٤١ ، ٣٤٣ ، ٣٥١ ، ٣٥٦ ، ٣٥٧ ، ٣٥٩ ، ٣٨٧ ، ٣٩١ ، ٤٠٥ ، ٤١٥ ، ٤٤٧ .
الأرمينيون Arminiens ٩٥ ، ١٠٠ ، ١٨٥ ، ٣٠٨ .
أرنو Arnauld ٤٩ ، ٨٧ ، ٩٠ ، ١١٥ ، ١٤٩ .
أرنست أوجوست (دوق دى هانوفر) ٢٢٥ .
إريسيرا (كونت) ٣٥١ .
أستورينى (الأب) ٤٧ .
إسكندر الأكبر ٤٦ ، ٣٦٦ .
اسكندر ذو الذراع الحديدية ٣٦٥ ، ٣٦٨ .
أغسطين (القديس) St. Augustin ٤٩ ، ١٦٣ ، ١٩٣ ، ١٩٤ ، ٢٠٢ ، ٢٠٣ ، ٤١٥ ، ٤٤٨ .
أفلاطون ٢٢٢ ، ٢٤٤ ، ٢٦٦ ، ٣٠٤ ، ٣١٠ ، ٣٣٥ ، ٤١٥ .
إمبروزيوس ١٩٧ .
أمر نانت Édit de Nantes ٢٤ ، (٧١-٧٢) ٧٣ ، ٧٦ ، (٨٣-٨٦) ٩٢ ، ٢٢٥ ، ٢٢٨ ، (٢٧٧-٢٨٠) ٣٠٧ .
إملو دى لا هوساى ٣٢٦ .
أمنتا (نيكولو) ٣٥٣ .
آن (ملكة انجلترا) ٦٧ ، ١٥٢ ، ٣٥٧ .
أناكريون Anacréon ٣٤١ ، ٣٤٧ ، ٣٤٩ .
أنطونيو نيكولا ٥٢ .
أورتيجا دى جاسى ٥٨ .
أوكلى (سيمون) ٢٢ .

ايشارد (لورانس) ٣٥ ، ٣٧ .
ايمار (جاك) ١٧٨ ، ١٧٩ .
إيرازم Érasme ٨٨ ، ٢٦٦ ، ٢٩٢ ، ٣٥٦ ، ٤٤٨ .

(ب)

بابون Papon ٩٧ .
باتس أدريان ٣٠٧ .
باتين جي Patin ١٢٤ .
بارو I. Barrow ٥٢ ، ٨٧ .
بالوز E. Baluze ٥٢ .
باناج (جاك) ٨٦ ، ٩٩ ، ١٩٢
باناج دي بوفال ٧٧ ، ٣٠٧
باسيرانو (كونت البرتو دي) ١٠٥ .
بايل (بيير) Pierre Bayle ١٧ ، ٦١ ، ٧٢ ، ٧٧ ، ٨٨ ، ٩٠ ، ٩٥ ، ١٠٠ ، (١٠١-١١٨) ، ١٤٠ ، ١٤٨ ، ١٥١ ، ١٥٢ ، ١٥٨ ، (١٥٩-١٦٣) ، ١٦٩ ، ١٧٩ ، ٢٤١ ، ٢٥٩ ، ٢٦١ ، (٢٨٩-٢٩٢) ، ٣٠٠ ، ٣٠٧ ، ٣١٥ ، ٣٢٨ ، ٣٤٠ ، ٣٧٩ ، ٤٤٧ ، ٤٤٨ ، ٤٥٠ .
بترون Pétrone ٣٥٦ .
بتلر (جوزيف) ٢٥٥ .
براون (توماس) ٦٤ ، ١٧
برايور Prior ٦٧ ، ٣٤٩ ، ٣٥٣ .
برتاد (الأب) ١٨٧ .
بركلي Berkeley ٦٧ ، ٦٨ ، ٢٥١ ، ٢٥٤ .
بونارد جاك ١١٦ .
برنييه Bernier ١٧ ، ١٠٣ ، ١٢٣ .
بريزونوس ٣٨ ، ٥٠ .
بريمار (الأب) ٣٦٤ .
بريموند (هانري) ٤١٨ .
بريتوى (بارون) Breteuil ٣٨٠ .
برينون (مادام دى) ٢٢٩ ، ٢٣٦ .
برنفلييه Brinvilliers ١٧٨ .
بريوا Briois ٥٩ .
بروملي (وليام) ٥٩ .
بروسيت (كلود) ١٧٩
بروتوس Brutus ٢٩٢
بسكال Pascal ٩ ، ٣٨ ، ١٤٧ ، ٣٠٢ .
بلاكمور (ريشارد) ٣٩٧ .
بلنزاني (الرئيسة فيراند) ٣٨٠
بنتلي Bentley ٥١ ، ٦٧ ، ٢٥٥ .
بنيون (الأب) ٣١٥
بلوش (الأب أنطوان) ٤٢٠ .
بلين ٢٩٠ .
بليسون (بول) ٢٢٨ ، ٣٠٥
بندار Pindare ٣٤٦ ، ٣٤٦ ، ٣٤٧
بواريه ٩٧ ، ٤٣٣ .
بوب Pope ٦٧ ، ٩٨ ، ٣٤٣ (٣٥٤-٣٥٧)

بوكوك ٢٢ .
بوفندورف Pufendorf ٥١ ، ١٧٤ ، (٢٧٥-٢٧٧) ٢٨١ ، ٣١٩ ، ٣٩٢ .
بول (القديس) ٢١١ .
بوالو Boileau ١١ ، ١٤٢ ، ١٨٠ ، (٣٥١-٣٥٣) ٣٥٦ ، ٣٥٩ ، (٣٧٣-٣٧٤) ٣٨٢ ، ٣٨٥ ، ٣٩٠ ، ٤٠٨ .
بوسويه Bossuet ١١ ، ٢١ ، ٤٤ ، ٤٨ ، ٦١ ، ٨١ ، ٨٢ ، ٨٨ ، ٩١ ، ٩٢ ، ٩٨ ، ٩٩ ، ١٤١ ، ١٩٦ ، (٢٠٠-٢١٨) (٢٢٧-٢٢٨) (٢٢٩-٢٣٦) ٢٦٩ ، ٢٧٨ ، ٢٧٩ ، ٢٨٢ ، ٣٠٥ ، ٣٠٦ ، ٣٧٨ ، ٤٢٧ ، ٤٢٩ ، ٤٣٣ ، ٤٥٠ .
بوترو Boutroux ٢٢٣ .
بونالد (فيكونت) ٢٥٩ .
بورنيون (أنطوانيت) ٤٣٥ .
بوابيه أبل Boyer ٣٥ ، ٦٨ ، ٧١ .
بوفيه Bouvet ٣٦٧ .
بطرس الأكبر (قيصر) ١٤ ، ٧٩ .
بطلميوس فيلا دلفوس ، ملك مصر ٤٦ .
بوشار (صاموئيل) ١٨٣ .
بوهم Boehme ٤٢٦ .
بويرهاف (هرمان) ٣١٤ ، ٣٢٠ .
بوانبورج (بارون) ٢٢٤ .
بواجلبرت (بيير) ٢٨٦ .
بوسبونازى (بيترو) ١٢٢ .
بوفييه Buffier ٣٥ .
بوكانان ٦٦ .
بولانفلييه Boulainvillers ٢٠٣ .
بوهور (الأب) ٦١ ، ٣٥١ .
بونيان (جون) ٦٦ .
بويل (روبرت) ٢٦١ ، ٣١٤ ، ٣١٦ .
بيكون (فرنسيس) F. Bacon ٦٦ ، ٢٤٣ ، ٢٦٦ ، ٣١٢ ، ٤١٥ .
بيرو Perrault ٣٦٢ ، ٣٨٢ .
بيرون Pyrrhon ٢٣٨ ، ٢٤١ .
بيزرون (الأب) ٤٦ ، ٤٧ ، ٢١٣ .
بيش (أدوارد) ٣٥١ .
بيكر (بالتازار) ١٤٧ ، ١٥١ ، ١٧٢ ، ١٧٣ ، ١٧٧ .
بينوا Benoist ٨٦ ، ١٦٢ .
بيانكيني (فرانسيسكو) ٥١ .
بيرنت (جلبرت) Burnet ٣٥ ، ٣٦ ، ٥٩ ، ٨٧ ، ٩٩ .
بيل (روجي دي) ٤٠٨ .

(ت)

تان Taine ٢٥٣ .
تاسيت ١٦٣ ، ٤١٥ .
تاشارد (الأب) ٣١٦ .

تافرنيه (جان باتست) ١٧ .
ترتوليان ١٩١ .
تسامح (عقد التسامح) ٣٠٧ ، ٣٠٨ .
تمبل (وليام) W. Temple ١٦ ، ١٢٢ ، ٢٦٦ ، ٢٩٣ .
تندال (ماتيو) ١٥٠ .
تولاند (جون) J. Toland ٦٦ ، ٧٢ ، (١٥٠-١٥٤) ١٦٢ ، ١٧٣ ، ٢٥٢ ، (٢٦٦-٢٦٨) ٣٧٨ ، ٤٤٩ .
توما (القديس) St. Thomas ٢٧ .
توماس الأكويني (القديس) St. Thomas d'Aquin ٤١٥ .
توماسيوس (كرستيان) Thomasius ٦٢ ، ١٧٢ ، (١٧٥-١٧٨) ٢٥١ ، (٢٨٧-٢٨٨) .
تورنمين (الأب) ٤٦ .
تيراسون (الأب) ٢٢ .
تيوكريت ٣٤١ .
تيودور ٢٩٠ .
تيريز دافيلا (القديسة) ٤٣٢ .
تيفينو (جان) ٣١٦ .
تيلوتسون Tillotson ٦٦ ، ١١٥ ، ٢٦٦ .
تيت ليف Tite-Live ٣٦ ، ٤٠ ، ٥٥ .
تيسو دي باتو ٣٢ .

(ج)

جارث (صامويل) ٣٧٣ .
جارسيلازو دي لافيجا ٢٩٣ .
جاروفالو ١٩٩ .
جالاند (أنطون) ٢٢ ، ٣٦٦ .
جاي Gay ٦٧ .
جايل (توماس) Gale ٥٢ .
جراسيان (بالتازار) ١٧٦ ، (٣٢٦-٣٢٨) .
جرافيساندي ٣١٤ .
جرافينا (جان) (٢٨٧-٢٨٨) ٣٥١ ، ٣٥٧ ، ٣٨٥ .
جراسونت (كونت) ٣٧٢ .
جروسيوس (هوج دي جرووت) Grotius ٨٨ ، ١٨٥ ، ٢١١ ، ٢٦٦ ، (٢٧٣-٢٧٥) ٢٧٨ ، ٢٧٩ ، ٢٨٠ ، ٢٨٨ .
جرونوفيوس ٤٢ .
جريجوري (القديس) ٨٣ .
جريملهوسن (كرستوف) ٣٩٤ .
جلانفيل (جوزيف) ١٧١ .
جوته Goethe ٣٥٨ .
جوس (أدموند) ٦٧ .
جوريك (أوتو فون) ٣١٥ .
جيتشل (جوهان) ٤٣٤ .
جيملي كاريري (ج ، فرانسيسكو) ١٦ .
جوالتيري (الأب) ٣١٤ .

جويون Guyon ، مادام جان بوفييه (٤٢٩-٤٣٢) .
جاك الثانى (ملك انجلترا) ٦٥ ، ٧٠ ، ١٢٧ ، ٢٨٠ .
جاكلو Jaquelot ٨٦ ، ١١٥ ، ١١٦ .
جان فردريك ، دوق هانوفر ٢٢٥ .
جورج لويس ، منتخب هانوفر ، أصبح جورج الأول ٢٣٦ .
جوريو Jurieu ٨٦ ، ٨٧ ، ٩٠ ، ٩٥ ، ٩٧ ، ١٠٦ ، ١١٥ ، ١٤٩ ، ٢١٠ ، (٢٧٨-٢٨٠) ٣٠٧ ، ٣٧٨ .
جوستان (القديس) St. Justin ١٦٣ .
جوفينال Juvénal ٣٨٢ .
جيروم (القديس) St. Jérome ١٦٣ ، ١٩٤ ، ٢٠٤ .

(د)

داسييه (أندريه) ٣٥٧ .
داسييه (مادام) Mme Dacier ٣٣٤ .
داسيير (وليام) ١٦ .
دانتى Dante ٣٩٨ .
دانييل (الأب) ٣٥ .
درايدن Dryden ٦٧ ، ٢٥٧ ، ٢٥٨ .
دنيس (جون) ٣٥١ .
دنيس داليكارناس ٣٥٦ .
دودويل (هنرى) ٤٣ ، ٨٧ .
دوريا (باولو ماتيا) ٣٨٢ .
دى بان Du Pin ٢٠٨ .
ديبو (الأب) Dubos ١٤٩ ، ١٧٩ (٤٠٧-٤١٢) .
دياجوراس ٢٩٠ .
ديدرو Diderot ١٤١ .
ديراس (مادام) ٨١ .
ديفرنيه (جوزيف جيشارد) ٣١٥ .
ديكارت Descartes ٦١ ، ٩٧ ، ١٠١ ، ١٢٣ ، (١٣٣-١٣٦) ١٧٢ ، (٢١٦-٢١٧) ٢٣٢ ، ٢٦٦ ، ٣١٠ ، ٣١٢ ، ٣١٨ ، ٣٦١ ، ٣٩٨ ، (٤١٢-٤١٥) ، ٤٣٦ .
ديلافالى (بيترو) ١٧ .
ديهينو Dehénault ١٢٤ .
ديهوليير (مادام) ١٢٦ .
ديزم ، مذهب Déisme (٢٥٤-٢٦٨) .

(ر)

رابين (الأب) ٦١ ، ٣٥١ ، ٣٥٧ .

راسين (جان) Racine ١١ ، ٤٩ ، ٦١ ، ١٤١ ، ٢٠٨ ، ٣٤٢ ، ٣٤٥ ، ٣٥٨ ، ٣٥٩ ، ٣٩٢ .
رامازيني (برناردينو) ٣١٤ .
رامبراند (بول) ٤٠٨ .
رانسيه ٥٢ ، ٢٠٢ .
رنيار Regnard ٦١ ، ٣٧٦ ، ٣٧٧ .
روبنز (بول) ٤٠٨ .
روبسبيير Robespierre ٣٢ .
رودبك (أولوس) ٣٩٣ .
روسو (جان جاك) J. J. Rousseau ١١ ، ٣٢ ، ٢٤٤ ، ٢٥٥ ، ٢٥٨ ، ٣٣٩ ، ٤٠٢ ، ٤٠٧ ، ٤٥٠ .
روسو (جان باتست) ٧٥ ، ٣٢٨ ، ٣٤٦ .
روك (البرازيلي) ٣٦٦ .
رومر (أولوس) Roemer ٣١٥ .
روهان (شيفالييه) ٣٧٢ .
ريجو ٢٠٠ .
ريدي (فرانسسكو) ٧٢ ، ٣١٦ ، ٣٤٧ .
ريشاردسون ٣٣٩ .
ريكو (بول) ١٧ ، ٢٣ .
ريلاند (أدريان) ٢٢ .
ريمر (توماس) ٥٢ ، ٣٥١ ، ٣٥٧ .
رينودو (الأب أوزيب) ٤٩ ، ٢٠٤ .

(س)

سابلبير (مادام دى لا) ٣٩٨ .
ساروتي (باولو) ٣١٦ .
سافوا (برنس أوجين) ٤١٢ .
ساكس (هانز) ٣٩٣ .
سالفادور (جونا) ١٨٧ .
سان بيير (الأب دى) ٤٣٩ ، ٤٤٠ .
سان بيير (برناردان دى) ٤٢٠ .
سان ريال (الأب دى) ٣٥ .
سان دنيس (شارل دى) ١٢٦ .
سانت أفريموند Saint-Evremond ١٢ ، ٤٢ ، ٧٢ ، (١٢٦-١٣١) ٢٩٣ ، ٣٢٨ ، ٣٣٠ ، ٣٤٠ ، ٣٨٥ ، ٤٤٩ .
سبينوزا (بندكتوس) Spinoza ٢٩ ، ١٢٢ ، ١٣٠ ، ١٣٣ ، (١٤٢-١٥٠) ١٥١ ، ١٥٢ ، ١٥٣ ، ١٨٣ ، ١٨٥ ، ١٨٦ ، ٢٠٤ ، ٢٠٥ ، ٢١٤ ، ٢٣٧ ، ٢٦٠ ، ٢٧٥ ، ٢٩٠ ، ٢٩٣ ، ٣٠٤ ، ٣٦٨ ، ٤١٣ ، ٤١٥ ، ٤٢٤ ، ٤٥٠ .
سبينولا (كرستوف روجاس) ٢٢٥ ، ٢٣٤ .
سبنسر (جون) ٤٨ ، ٢٦٦ .
سبنر (فيلب يعقوب) ٤٢٥ ، ٤٢٦ .

ستاندال Stendhal ٣٢٦ .
سترابون ١٧ ، ٢٠ .
ستراتون ٢٩ .
ستنس (نيلز) ٣١٥ .
ستوش ١٥٠ .
ستيل (ريشارد) Steele ٦٤ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ٣٢٩ ، ٣٣٣ ، ٣٥٣ ، ٣٨٤ ، ٣٨٥ .
سرفانتس Cervantès ١٠ ، ٥٩ .
سقراط ٢٦٦ .
سكارلاتى ٣٨٨ .
سكاليجر (جوزيف) ٢٦٦ .
سليمان ٢٦٦ .
سوامردام ٣٨٤ .
سوبيسكى (جان الثالث ، ملك بولونيا) ٧٨ .
سوران (إيلى) ٣٠٧ .
السوسنيانيون Sociniens ٩٦ ، ٩٧ ، ٩٨ ، ١٠٠ ، ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١٩٦ .
سوفت (جوناتان) Swift ٣٢ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ٢٣٧ ، ٢٣٨ ، ٢٦٧ ، ٣٤٠ ، ٣٥٣ ، ٣٩٠ .
سوفوكليس ٣٩٢ .
سوفير (جوزيف) ٣١١ .
سوليس (أنطونيو) ٣٥ .
سويتون Suétone ١٦٣ .
سيبر (كولى) ٣٨٢ .
سيمنتو (أكاديميه) ٣١٤ .
سينكا Sénèque ٩ ، ١٦٠ ، ٢٦٦ .
سيمون (ريشار) R. Simon ٨٧ ، ٩١ ، ٩٨ ، (١٨٢-٢٠٠) ، ٢٠٥ ، ٢٠٧ ، ٢١٨ ، ٢٣٧ ، ٢٥٦ ، ٣١٩ ، ٤٤٧ .

(ش)

شاتو برياند ٤٢٠ .
شاردين (جان) ١٨ ، ٢٤ .
شارل الثانى ، ملك انجلترا ٧٦ .
شارل الحادى عشر ، ملك السويد ٢٧٦ .
شارل الثانى عشر ، ملك السويد ٧٨ .
شارلكان Charles-Quint ٣٦ .
شرلوك (توماس) ١١٦ ، ٢٦١ .
شفتسبرى Shaftesbury ٦٧ ، ٧٢ ، ٧٧ ، ٧٩ ، ١٥٠ ، ٢٤٢ ، ٢٤٣ ، ٢٦٠ ، (٢٩٩-٣٠٥) ، ٣١٩ .
شكسبير Shakespeare ٥٨ ، ٣٥٠ ، ٣٥٨ .
شهر زاد ٣٦٦ ، ٣٦٨ .
شوشزر ١٣٥ .
شوليبه (الأب دى) ١٣٨ .
شيشرون Cicéron ٧٠ ، ٢٦٦ ، ٢٩٢ .

(ص)

صوف شارلوت ١٥٢ .

(ع)

عزير Esdras ٢٠٥ .

(غ)

غسندى Gassendi ١٠٩ ، ١٢٣ ، ٢٤٣ ، ٢٦٦ ، ٤١٥ .

(ف)

فاركار (جورج) ٦٤ ، ٦٦ .
فارون ٢٦٦ .
فاريلاس Varillas ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٧ ، ٤٠ .
فالسنيرى (أنطونيو) ٣١٤ .
فالمون Vallemont ١٧٩ .
فالنكور (جان باتست) ٣٤٤ .
فان برون (كورنليوس) Van Bruyn ٧٩ ، ٣٦٧ .
فانبروج (جون) ٦٦ ، ٣٥٣ .
فان دير جوس ٦٤
فان ديل Van Dale ١٥١ ، ١٦٤ ، ١٦٥ ، ١٧٩ .
فانينى ٢٩١ .
فرانسوا الأول ٣٦ ، ٣٧ .
فرانك (أوجست هرمان) ٤٢٦ .
فرانكلين (بنيامين) ٨٤ .
فرجيل Virgile ١٦٣ ، ٣٥٧ ، ٣٩٦ .
فردريك الأول ، ملك بروسيا ٧٩ .
فردريك الثانى ، ملك بروسيا ٤٤٩ .
فردريك الثالث ، منتخب براندبورج ٧٨ ، ٨٧ ، ١٧٧ ، ٤٢٦ .
فرنيك (كرستيان) ٣٥١ .
فريول (مسيو دى) ٣٦٧ .
فلمر (روبرت) Filmer ٢٨٠ ، ٢٨١ .
فلوطرخس ٣٦ ، ٢٦٦ .
فليرى (الأب) ٦١ ، ١٨٤ ، ٢٠٤ ، ٢١٠ .
فليرى (كاردينال دى) ٣٤٤ .
فنسان دى بول (القديس) ٢٠٣ .
فنيلون Fénelon ١١ ، ٩٠ ، ١٤٩ ، ٢٠٩ ، ٢١٠ ، ٢١٧ ، (٢٨٤-٢٨٧) ٣٢٨ ، ٣٢٩ ، ٣٧٨ ، ٤٢٧ ، ٤٢٨ ، ٤٢٩ ، (٤٣٠-٤٣٣) ٤٥٠ .
فونتنل Fontenelle ٥٤ ، ١٣٤ ، ١٣٧ ، ١٥١ (١٦٤-١٧٠) ٢٣٦ ، ٢٤١ ، (٣٠٩-٣١٢) ٣١٨ ، ٣١٩ ، ٣٢٠ ، ٣٢١ ، ٣٢٨ ، ٣٤٠ ، ٣٧٨ ، ٣٨٢ ، ٤٠١ ، ٤٤٩ .

فو (دانيال دى) Foe ٥٧ .
فورتس (الأب ألبرتو) ٣١٤ .
فورستى (الأب أنطونيو) ٥٠ .
فوكيه ٢٣٢ .
فوسيوس Vossius ١٣٠ ، ١٦٤ ، ١٩٢ .
فولتير Voltaire ١١ ، ٣٢ ، ١٣١ ، ٢٥١ ، ٢٥٥ ، ٣١٥ ، ٣٣٦ ، ٣٥٨ ، ٣٥٩ ، ٤٥٠ .
فيدا (ماركو جيرولامو) ٣٥٦ .
فيتاغورس ٣١٠ .
فير (نيكولا دى) ٥٦ .
فيراند (الرئيسة) ٣٨٠ .
فيرتو Vertot ٣٥ ، ٣٦ .
فيكو (جان باتستا) Vico ٧٨ ، ٣١٦ ، (٤١٥-٤١٧) .
فيليبس (جون) ٣٧٤ .
فليكاجا (فنسنزو) ٣٤٨ .

(ك)

كابيل (لويس) ١٨٣ .
كاتون (لى سانسير) ٢٦٦ ، ٢٩٢ ، ٣٥٩ .
كادورث Cudworth ٦٧ ، ٢٦٦ .
كاربزو Carpzow ١٧٤ .
كاردوتشى ٣٥٠ .
كافارو (الأب) ٢١٨ .
كامبانيلا (توماس) ١٥ .
كامبرلاند Cumberland ٢٧٧ .
كانتز Canitz ٣٤٧ .
كرستينا (ملكة السويد) ١٤ .
كرليوس ٢١١ .
كريبيون Crébillon ٣٥٨ .
كروسويل ٦١ ، ٧٦ .
كريسمبينى ٣٥١ ، ٣٨٥ .
كلارك (صاموئيل) S. Clarke ٦٦ ، ٧١ ، ٧٢ ، ٢٥٥ ، ٢٦٥ ، ٣٦٩ .
كلاريس (باولو بارتولوميو) ٣١٤ .
كلود Claude ٨١ ، ٨٢ ، ٨٥ .
كنت كورس Quinte Curce ٥٥ .
كنتليان Quintilien ٣٥٦ .
كنج (وليام) ١١٣ ، ١١٥ .
كنوتسن ١٥٠ .
كوبر (جلبرت) ٣٠٧ .
كوبرنيكوس ٣٠٩ .
كورتلز (جاسيان دى) ٣٧١ .
كوردىموا ٣٥ .
كورنليوس نيبوس ٥٥ .
كورنيل (بيير) Corneille ٦١ ، ٦٤ ، ١٦٤ ، ٣٤١ ، ٣٥٩ ، ٣٨٧ ، ٣٩٢ .
كوست (بيير) P. Coste (٧٢-٧٣) ، ٧٤ ، ٢٥٠ ، ٢٥١ ، ٣١٦ ، ٣٣٤ ، ٤٠٤ .
كولبير Colbert ١٥ ، ٢٨٥ .

كولنز (أنطونى) A. Collins ، ٧٢ ، ٧٧ ، ١٥٠ ، (٢٦٥-٢٦٧) ، ٣٧٨ .
كونتى (أنطونيو) ١٣ .
كونجريف (وليام) ٦٦ ، ٣٥٣ .
كوندياك ٢٥٣ ، ٤٠٥ .
كونفوشيوس (٢٧-٣٠) ٣٣٦ .
كوهلمان (كرينوس) ٤٣٦ .
كينو Quinault ٣٨٦ .

(ل)

لابرويير La Bruyère ١٨ ، ٧٢ ، ٧٣ ، ١٦٤ ، ٢٧٠ ، ٢٨٥ ، ٣٣٠ ، ٣٧٧ ، ٣٨٥ .
لاروك (الأب) ١٨٦ .
لاشيز (الأب) ٢٠٤ ، ٣٦٤ .
لافار (ماركيز دى) ١٣١ .
لافونتين La Fontaine ٦١ ، ٧٢ ، ٣٤١ ، ٣٩٨ .
لاكومب (الأب) ٤٥٠ .
لاما (برناردو) ١٣٧ .
لامبير (مادام دى) ٣٣٥ .
لامت لى فاييه La Mothe ٢٨ ، ١٠٨ ، ١٢٤ .
لامت (هودار دى) ٥٧ ، ٣٤٤ ، ٣٤٥ .
لامى (الأب) ٨٨ ، ١٤٩ .
لانجبين (جيرار) ٣٥١ .
لانسيزى (جيوفانى ماريا) ٣١٤ .
لاهونتان (بارون) ١٩ ، ٢٦٠ ، ٤٧٠ .
لنجليه ديفرنوا ٣٨ .
لنكلو (نينون دى) ١٢٦ .
لوثر Luther ٨٢ ، ٩٢ ، ١٧٧ .
لوسبيتال (ميشيل دى) ٢٩٠ .
لوك Locke ١٤ ، ٦٦ ، ٧٠ ، ٧٢ ، ٧٣ ، ٧٧ ، ٩٢ ، ١٢٣ ، ١٣٣ ، ١٥١ ، (٢٤١-٢٥٣) ٢٦٤ ، ٢٦٦ (٢٨١-٢٨٣) ٢٨٥ ، ٢٨٨ ، ٣٠٠ ، ٣٠٤ ، ٣٠٨ ، ٣١٩ ، ٣٢٠ ، ٣٣٤ ، ٣٦٩ ، (٤٠٣-٤٠٧) ٤١٥ ، ٤٤٩ ، ٤٥٠ .
لوكريش Lucrèce ١٢٤ .
لولى ٣٨٦ .
لونجان Longin ٣٥١ ، ٣٥٦ ، ٣٩٧ .
لونو (جان دى) ١٨٤ .
لوهنستين (كاسبرز فون) ٣٩٣ .
لويز هولاندين ٢٢٩ .
لويس (دوق دى بورجوفى) ٢٨٦ .
لويس الثالث عشر ٢٧٣ .
لويس الرابع عشر Louis XIV ١١ ، ١٥ ، ٢١ ، ٢٥٠ ، ٣٦ ، ٦٠ ، ٦٥ ، ٦٦ ، ٧٢ ، ٧٧ ، (٨٣-٨٦) ٩٠ ، ٩١ ، ٩٣ ، ١٠٠ ، ١٠٤ ، ١٤١ ، ١٨٠ ،

٢٠٤ ، ٢١٠ ، ٢١٤ ، ٢٣٦ ،
٢٣٧ ، ٢٦٥ ، (٢٦٩-٢٧١)
٢٧٨ ، ٢٧٩ ، ٢٨٤ ، ٣٠٥ ،
٣٦١ ، ٣٦٤ ، ٣٧٨ ، ٣٩٥ ،
٤٠٨ ، ٤٥٠ .
لو بران (شارل) Le brun ٤٠٨ .
لوبلان (الأب) ٣١٦ .
لوبوسى (الأب) ٣٥١ ، ٣٥٧ .
لوتيبه (ميشيل) ٢٠٥ ، ٢٠٧ .
لوجوبيان (الأب) ٢٨ ، ٢٩ .
لوديبه ٢٠٢ .
لوفاسور (ميشيل) ٢٥٦ ، ٢٥٧ .
لوكونت (الأب) ١٨ ، ٢٨ .
لوموان (الأب) ٣٦ .
لوكلير (جان) ٧٧ ، ٧٨ ، ٨٨ ،
٨٩ ، ٩٩ ، ١٠٠ ، ١١٥ ، ١٢٩ ،
١٤٧ ، ١٩٨ ، ٢١٢ ، ٢٥٠ ،
٣٠٠ ، ٣٤٥ ، ٣٧٨ .
لونوتر ٣٤٣ .
ليبنتز Leibniz ١٣ ، ٤٥ ، ٥١ ،
٧٢ ، ٩٢ ، ١٣٣ ، ١٤٩ ، ١٥٢ ،
(٢١٩-٢٣٨) ، ٣٠٥ ، ٣١٦ ،
٣١٧ ، ٣٢١ ، ٣٤٠ ، ٣٦٨ ،
٣٩٢ ، (٤١٢-٤١٥) ٤٣٧ ،
٤٤٠ ، ٤٥٠ .
ليتى (جريجوريو) ١٣ ، ٦١ ،
٧٢ .
ليجيه (الأب) ٣٣٦ .
ليد (جان) ٤٣٤ .
ليساج Lesage ٦١ (٣٧٠-٣٧١) .
ليسنج Lessing ٣٥٨ .
ليفى (روفائيل) ١٩٩ .
ليكوين (الأب) ٢١٣ .
ليرى (نيكولا) ٣١٥ .
ليون (هوج دى) ٢١٢ .
ليوفنهوك (أنطون) ١٤ ، ٣١٤ .
لى (ناتانيل) ٣٥٨ .

(م)

محمّد ٢٢ ، ٢٣ ، ١٥٢ ، ٢١٠ .
مابيون (دون جام) ٥٢ ، ١٨٤ .
ماجالوتى (لورنزو) ٣٩٨ .
مارانا (جيوفانى باولو) ٢١ ، ٢٤ .
مارسيلو (بنيدتو) ٣٨٧ .
ماركيوس (جوهانس) ١٦٤ .
مارى دى جيزو ٢١٧ .
مارى تريزا النمسوية ٢١٤ .
ماريون (إيلى) (٤٢٣-٤٢٤) .
ماريوت ٣١٥ .
ماريفو Marivaux ٣٤ .
مارسجلى (كونت دى) ٣١٤ .
مارشام (جون) ٤٧ ، ٤٨ ، ٤٩ ،
٢١٢ ، ٢٦٦ .
مازيل (أبراهام) ٤٢٣ .
مازيل (دافيد) ٢٥١ .

ماسيون Massillon ٦١ .
ماكيافيلي ١٤٤ ، ٢٧٠ ، ٢٧٤ .
مافيتي (سبيوني) ٣٥٨ ، ٣٨٥ .
مالبورو ٣٥٧ .
مالبرانش Malebranche ٣٩ ، ١٠٩ (١٣٦-١٤١) ١٤٨ ، ١٥٤ ، (٢١٤-٢١٦) ٢٤٥ ، ٣٦٨ ، ٤١٥ .
ماسبورج (الأب) ٣٥ ، ٣٦ ، ٨٣ ، ٨٨ ، ١٠٤ .
ماندفيل (برنار دى) (٢٩٥-٢٩٧) .
مانسيني هورتانس، (دوقة دى مازارين) ١٢٧ .
مزريه ٣٥ .
مكتانب (صحته نكتانيبو فرعون مصر) ٤٦ .
ملتون Milton ٦٦ ، ٢٦٦ ، ٣٧٤ .
ملك سيام ٢٥ .
ممتى (إمبراطور الصين) ٢٧ .
منتنون (مادام دى) Maintenon ٢٣٥ ، ٣٦١ .
منكين ٤٠ .
مورا (بيات دى) ٤٠٢ .
موراتورى (أنطونيو) ٥٢ ، ٦٢ ، ٣٥١ ، ٣٨٥ .
مورجان (لى جالوا) ٣٦٦ .
مورهوفيوس ٣٩٣ .
موريرى ٨٨ ، ١٠٨ .
مولانوس (فالتر . . .) ٢٢٥ ، ٢٣٠ .
موليير Molière ١١ ، ٦١ ، ٦٤ ، ٣١١ ، ٣٤١ ، ٣٧٧
موليتوس ٤٣١ .
مولينيه Molyneux ١٥٢ .
مونبران (ماركيز دى) ٣٧٢ .
مونتسكيو Montesqieu ١١ ، ٢٥ .
مونتانى Montaigne ٧٢ ، ٧٣ ، ٢٦٦ ، ٣٣٠ ، ٤٤٧ .
مونتوبان ٣٦٦ .
مونفوكون (برنار دى) ٥٢ ، ٥٩ .
ميوم (هنرى) ٥٢ .
ميج جى Guy Miège ٦١ .
ميزو (بيير دى) Maizeaux ٧٢ ، ١٢٧ ، ٣٠٠ .
ميسون (ماكسمليان) ٥٩ .
ميشيل أنجلو ١٦٣ .
ميشيلى (بيير أنطونيو) ٣١٤ .
مينوسيوس فليكس ٢٦٦ .

(ن)

نوايل (الأب) ٢٣٦ .
نودت (جيرارد) ٣٠٧ .
نيكاتور ٢٩٠ .
نيكول Nicole ٨٧ ، ١١٥ .

نيوتون Newton ٤٥ ، ٦٦ ، ٧٢ (٣١٦-٣١٩) ، ٣٦٩ ، ٤٥٠ .
نيوفنتجت Niewentijt ٤٢٠ .

(هـ)

هاليفاكس (ماركيز) ٢٩٣ ، ٣٢٥ .
هاملتون ٣٧٢ .
هاندل (جورج فردريك) ٣٨٦ .
هانريت الانجليزية ١٤١ .
هانسيوس (دانييل) ١٣٠ .
هانوفر (دوقة دى) ٢٢٩ .
هايد (كونت كلارندن) ٣٥ .
هربرت (بارون دى شربرى) ١٤٤ ، ٢٥٤ ، ٢٦٦ .
هلفسيوس Helvétius ٤٠٥ .
هوبز Hobbes ١٤٤ ، ١٥١ ، ٢٦٦ ، (٢٧٠-٢٧١) ، ٢٨١ .
هوتشستتر Hochstetter ٧٠ .
هوراس ١٢٤ ، ٣٤٩ ، ٣٥١ ، ٣٥٦ ، ٣٥٧ ، ٣٨٢ ، ٣٩١ .
هوكنكور (ماريشال) ٣٢٨
هوميروس ٣٤٣ ، ٣٥٦ ، ٣٥٧ ، ٣٩٦ .
هويه (جيديون) Huet ٣٠٧ .
هويه (أسقف أفرانش) ٤٨ ، ٢٠٧ .
هويسو d'Huisseau ٩٧ ، ٩٨ ، ٣٠٧ .
هيبون ٢٩٦ .
هيجنز (كرستيان) ٣٨٤ .
هيرييلو ٢٢ ، ٢٣ .
هيرودوت ٢٠ .
هيل (آرون) ٣٦٤ .

(و)

وار برتون (وليام) ٢٥٥ .
والبول (هوراس) Walpole ٥٩ .
وايز (كرستيان) ٣٩٣ ، ٣٩٤ .
ولستد (ليونارد) ٣٥١ .
وليام أورانج Guillaume d'Orange ٣٦ ، ٦٥ ، ٨٤ ، ٨٦ ، ٩٢ ، ٩٥ ، ١٢٦ ، ٢٣٦ ، ٤٢ ، ٢٨٠ ، (٣٠٧-٣٠٨) ، ٣٩٥ .
ويزوواتى Wiszowaty ٩٧ .
وود روجرز ١٦ .
ويكر لى (وليام) ٦٦ .

اصطلاحات

(ا)

Harmonie préétablie	الاتساق المقدر
Sceptiques	الارتيابيون
Esthétique	استطيقا
Déduction	استنباط
Mécanisme	آلية
Etendue	امتداد
Le moi	الانية
Les lumières	أنوار المعرفة
À priori	أوليا

(ب)

Évidence	بداهة
Pédagogie	بيداجوجيا

(ت)

Illuminisme	التجلى
Empirisme	التجريبية
Analyse	تحليل
Mysticisme	تصوف
Théosophie	تيوصوفية

(ج)

Le sublime	الجليل الجمال
Substance	الجوهر
Monade	الجوهر الفرد

(ح)

Intuition	حدس
Sensibilité	الحساسية
Calcul infinitésimal	حساب النهايات الصغرى
Panthéistes	الحلوليون
Les bêtes-machines	الحيوانات ـ آلات

(خ)

Piétisme	الخشوعية

(د)

ديزم (الاعتراف بالله وإنكار الوحى)	Déisme

(ر)

الركونية	Quiétisme
الرواقيون	Stoïciens

(س)

السوسنيانيون	Sociniens

(ص)

صغرى القياس	La mineure
الصيرورة	Le devenir

(ع)

العقليون	Rationaux
العلة	La cause
العلة الغائية	La cause finale
العلل الفعالة	Les causes efficientes

(غ)

الغدة الصنوبرية	La glande pinéale

(ف)

الفراغ	Le Vide
الفضاء	L'Espace
فكر	Pensée
فكرة	Idée
فلسفة الذرائع	Pragmatisme
فيلولوجيا	Philologie

(ق)

قلق	Inquiétude
القوام	Substratum
قياس	Syllogisme

(ك)

كبرى القياس	La majeure
الكويكرز	Quakers

(ل)

لاستناه	Infini
لاسنطقية	Illogisme

(م)

ماهية	Essence

مختلط	Cosmopolite
مخالفو التثليث	Antitrinitaires
المطلق	L'Absolu
الملهمون	Les illuminés
منهج	Méthode
الموقفون	Les initiés

(ن)

النسبي	Le relatif

النور الفطرى	Lumière naturelle

(و)

وحي	Révélation
وضوح	Clarté

(ى)

يقين	Certitude

مطبعة الكاتب المصري شركة مساهمة مصرية